لماذا يَخَافُون الإسْلام

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

© **دار الشروق**

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
لندن : ٣١٨/٣١٦ ريجنت ستريت - لندن دبليو ١ - هاتف : ٢٧٤٣/٤ ٦٣٧ - تلكس : SHOROK 25779 G

دكتور عبد الودود شلبي

لماذا يَخَافون الإسْلام

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

من آذى ذمّيًّا ...
فقد آذاني ...
ومن آذاني ...
فقد آذى ... الله ... !

«حديث شريف»

كلمة حق

يقول برنارد شو :

لقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان .. !
إما بسبب الجهل . أو بسبب التعصب الذميم ..

لقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد . وعلى كراهية دينه وكانوا يعتبرونه خصماً للمسيح ... ! .

ولقد درسته باعتباره رجلاً عظيماً فرأيته بعيداً عن هذه المخاصمة . بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ... !

وإني لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة ...

° ° °

إنه لعار أي عار .. أن تبقى هذه الأحقاد والضغائن ـ ضد الإسلام كامنة ـ في قلوبنا إلى اليوم .

لقد علمونا الكذب باسم الصدق . والكراهية باسم الحب ... ... والخرافة ... باسم الحقيقة والعلم ..

ولا مناص من الاعتراف بسماحة الإسلام وعدالته التي كانت مضرب المثل لأعدائه قبل أصدقائه على السواء ...

روجيى جارودى
المفكر الفرنسى

المقدمة

في عام ١٩٦٩ م سافرت إلى بريطانيا .. واستقر بي المقام في مدينة «كمبردج» Cambridge وفي شارع Hinton Avenue جمعتني المقادير بمجموعة من الدارسين من سويسرا . وألمانيا وفرنسا . وايطاليا .. كانوا يقيمون معي في نفس البيت . ونتناول طعامنا سويا على مائدة واحدة كل يوم ...

إلا أنني لاحظت شيئًا فى تصرفات هذه المجموعة وموقفها مني ... لقد عرفوا أنني مسلم ... ! عرفوا ذلك حين كنت أتحدث إلى صاحبة البيت بألا يحتوي طعامي على لحم الخنزير .. وأن تتفضل مشكورة بعدم وضع أي مسكر أمام مقعدى فى غرفة الطعام ... !

لكن ... ليست هذه هي المشكلة ، فقد عرفت كثيراً من الانجليز يفعلون ذلك تقززاً من منظر هذا اللحم المحرم ... ! وعرفت آخرين لا يشربون الخمر صوناً لعقولهم وكرامتهم من الهوان والتبذل .. ألأنني مسلم .. ؟

فالإسلام كما عرفوه ، ودرسوه دين همجي ... ! وأتباعه لا بد

وأن يكونوا على شاكلته وإن عاشوا في مجتمع حضري ... !

وقد لاحظت أيضاً :

أن صاحبة البيت ـ الذي كنت أنزل فيه مع هذه المجموعة ـ بدأت تراقبني خفية ... ! كانت تتعمد دخول « الحمام » بعد خروجي منه ... وتزور حجرتي بعد الذهاب إلى المعهد الذي كنت أدرس فيه ، وترصد حركاتي طوال الوقت حين أكون موجوداً بالبيت ... !

وبعد حوالي أسبوعين وجدتها تدخل عليّ فجأة ... كان اليوم يوم أحد ... وكان كل من في البيت نائماً بعد سهر طويل في نوادي الليل ... وكنت دون غيري اليقظ الوحيد بين أهل الكهف ... !

قالت المسز داى Mrs. DYE وهذا هو اسمها :

ـ أريد أن اعتذر إليك ! فقد لاحظت أنك الوحيد الذي يحافظ على نظافة البيت ... ! كنت أدخل الحمام بعد خروجك منه فأراه كأن لم يستعمل قط ... وكنت أذهب لترتيب حجرتك فأراك سبقتني إلى هذه النظافة وهذا الترتيب ، وعرفت أنك الوحيد الذي يحافظ على نظام البيت ومواعيده بالضبط ..

ولكن شيئاً واحداً يحيرني ولم أفهمه حتى الآن ... !

قلت للمسز «داى» مازحًا ... :

ـ وأي شيء هذا الذي يحيرك مني .. ؟ !

قالت :

فى تمام الساعة الخامسة صباح كل يوم أسمع في حجرتك حركة وأرى الأنوار مضاءة . فماذا يحدث عندك صباح كل يوم في هذه الساعة المبكرة ؟ !

قلت للسيدة « داى » :

فى هذا الوقت أقوم لأصلي الفجر وهي أول صلاة يؤديها المسلم كل يوم .. وبعد الصلاة أجلس لأقرأ شيئاً من القرآن .. كتابنـا المقدس .. ثم أتهيأ بعد ذلك للنزول إلى غرفة الطعام لتناول طعام الإفطار فى الوقت الذى حدَّدتِهِ لنا بالضبط .. !

* * *

لقد تبدلت المسز « داى » تبدلاً كاملاً منذ هذه اللحظة . كانت تعاملني معاملة خاصة تعجب منها الأخ الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبى ـ إمام المركز الإسلامى فى هذا الوقت ـ حتى زوجها الرجل الغليظ المشاعر والحس ، بدأ يؤثرنى بمودته التى كانت شحيحة حتى بالنسبة لأطفاله الصغار فى البيت ... !

كان معنا في البيت دارس فرنسي اسمه جون باسكال John Pascal أبوه من كبار رجال الأعمال فى فرنسا فى مدينة « بوردو » ... لقد دعانى ذات يوم إلى حجرته ، وبعد كلمات المجاملة المعروفة وتقديم المرطبات والفاكهة . سألنى قائلاً :

ـ هل تعرفني ... ؟

ـ طبعاً فأنت فلان .

قال : لا إنني أعني شيئاً آخر ... !

ـ قلت : وما هو ؟

قال : أنا يهودي ... ؟

قلت : وما الغرابة في ذلك .. إنني كمسلم مطالب باحترام اليهودي والمسيحي . فديني يأمرني بأحسن المعاملة لأهل هاتين الديانتين بصفة خاصة .

أما إذا كنت تقصد ما بين إسرائيل والعرب فالقضية هنا مختلفة .

فأنا كمسلم يأمرني الإسلام بقتال أي رجل يريد أن يعتدي على حياتي أو مالي ... حتى لو كان هذا المعتدي مسلماً فإن الإسلام يطالبني بأن أقاتله وأن أدفع ظلمه ..

فالقضية هنا ليست قضية يهودي ومسلم . أو مسيحي ومسلم . انها قضية عدوان وظلم . ودفع الظلم من طبيعة الإسلام .. سواء أكان المعتدي أو الظالم مسلماً أو غير مسلم ...

* * *

وقد فوجئت بعد سفري إلى استراليا بحملة صليبية شرسة ضد الإسلام ... وبخاصة بعد مشكلة الرهائن في إيران ..

وقد ساعد على تأجيج نيران هذه الحملة بعض المهاجرين من دول الشرق الأوسط الذين استغلوا هذه الفرصة للتنفيس عن أحقادهم الكامنة منذ أكثر من ألف عام ... !

كان كل شيء ملتهباً .. في البيوت والمصانع . والاذاعة والصحف ... كانت حملات الكراهية للإسلام . والخوف من الإسلام فى قمة غضبها .. فالمسلمون وحوش وقتلة وهمج .. إلى آخر هذه المعزوفة البغيضة . التى نسمعها كل يوم ..

وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم ... وينبثق نور الفجر من ظلمة الليل . كان هذا الحوار الذي كشف السر عن أبعاد هذه المؤامرة . وعن الشياطين والأشرار الذين أججوا نيران هذه الفتنة ... ! وعن الإسلام العظيم .

دين الإخاء والمساواة .. والحرية ...

لماذا يخـــافون الإســلام

حين يتناول الباحث الغربى من المسيحين موضوع الأديان لا يقيده شيء بالنسبة للدين الإسلامى ، فقد ارتفع عنه الحرج من جهة دينه ، فدينه لا يحدثه عن الإسلام ولا عن نبى الإسلام ، فهو لا يخشى عقاب الآخرة ، وكذلك لا يجد أحدا يقاضيه إذا حاد عن الطريق السوى وأنكر النور الذى جاء به الإسلام لإنقاذ البشرية ، بل يجد مشجعا ، وقليل ما هم الذين فكروا واهتدوا .

فإذا حذا المسلم الشرقى حذو المسيحى الغربى وأراد الحديث عن الأديان وقارن بين الشرائع السماوية وجد نفسه مقيدا بالنسبة للحديث عن الأنبياء فهم معصومون كما جاءت بذلك التعاليم الإسلامية ، وبجانب ذلك يحرص على ألا يغضب جاره معتنق الديانات الأخرى .

ومن ثم نقل البحوث التى تعنى بالأديان فى بلاد الشرق عامة وفى مصر خاصة ، وفى العصر الحديث الذى نعيش فيه كثر الحديث فى الغرب عن محاولة فتح الحوار بين الديانة المسيحية والديانة الإسلامية ، وفى سبيل ذلك كانت لقاءات بين رجال الدين من الفاتيكان وعلماء الأزهر سنة ١٩٦٩ ،

---

(١) لم يألف القراء أن يقدم كاتب لأى من مؤلفاته بقلم غير قلمه .. إلا أننى رأيت فيما كتبه الأستاذ السيد قرون غنًى عن آية مقدمة يمكن أن تتصدر هذه الطبعة الثالثة من الكتاب

وفى سنة ١٩٧٤ كان اتصال مماثل بين الفاتيكان وعلماء المملكة العربية السعودية ، ولكن هذا التقارب لم يثمر ثمره المرجو ، ولم تهتم به الصحف فى الغرب وكأن الأمر لا يعنى أحدا .

وأغلب الظن أن الدافع إلى التقارب والمقارنة بين الأديان هو تخفيف حدة التعصب ونحن فى مصر لا نحس بالتعصب ولا نشعر به . ولهذا نتجاوب مع طلاب التقارب ولا نزداد ــ إحساسا بالتسامح الدينى . فمن طبيعة بلادنا أنه « لا تعصب فى مصر » كما هو عنوان مقال للشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد فى زمانه .

لكن الدكتور عبد الودود شلبى حين كان يشرف على « المركز الإسلامى » بقارة « استراليا » ١٩٨٠ فوجئ باختبار عسير لم يصادفه فى مصر قط ، ولم يصادفه فى لندن ببريطانيا حين كان يطلب العلم ، ولم يصادفه فى أسفاره المتعددة فى الشرق والغرب . وعلى غير انتظار وجد أناسا على قدر من الثقافة يلاحقونه ويطالبونه بالمقابلة وبالحوار وتحديد الزمان والمكان . وقد كان .

« لقد عاش الشعب الاسترالى بعيدا عن الجدل العقائدى طوال قرنين من الزمان » كما يقول الدكتور عبد الودود ، فمن أين جاءته تلك النغمة الجديدة ؟

مع الموجات الجديدة للهجرة .. بدأت تظهر على سطح هذه الحياة الوادعة فقاعات سامة . ووجدت جراثيم الكراهية والبغضاء فرصة للتضليل والفتنة .

وما شأن الدكتور عبد الودود بتلك الفقاعات وتلك الجراثيم حتى يتحمل فى سبيلها العناء والشحناء ؟ .

رويدا . فالخطر قادم من بلاد التسامح والوداعة ودماثة الأخلاق . من مصر . والدكتور يمثل مصر والمركز الإسلامى ومسئول فى نظر الذين قصدوه بتوضيح ما يحدث فى مصر وفى العالم الإسلامى جميعه .

ولابد أن يجيب عن كل سؤال وعن كل مشكلة ، فهو حوار من نوع عجيب . ولأنه عجيب حقا أوجب على المقصود بالحوار أن يجمع كل ذلك فى كتاب . وكتاب شائق يجذبك إلى قراءته جذبا ويحول بينك وبين تقسيمه إلى فترات ، فأنت مضطر إلى أن تقرأه فى جلسة واحدة – وقد فعلت .

وقد يسرك الأمر كله . فوضع لك الكتاب فى ثلاثة فصول أو بنود ، وكتب لها مقدمة رائدة فيها قدوة وفيها صورة صادقة عن المسلم الذى يعيش فى غربة .

ففى الفصل الأول ، أو « الحلقة الأولى من الحوار » : يتضح لك ما أحدثه صاحب الكتاب الأزرق القادم من بلاد التسامح الدينى المضروب بها المثل وكيف أحدث بلبلة فى العقول واضطرابا فى التفكير وفزعا فى النفوس بما تقول به فى كتابه عن الدين الإسلامى وما يحدث فى مصر ، ومعنى هذا أنه تعرض لمبادئ الإسلام وتطبيقها ومن ثم كان بيان الدكتور عبد الودود شلبى لمحاوريه الذين يحملون الكتاب الأزرق . ويجعلونه دليل الحوار . أو جدول أعمال الجلسة كما يقول أهل الأعمال ، وفى إفاضة صادقة عرض الدكتور عبد الودود لموقف القرآن الكريم من اليهود والنصارى شارحا معنى « الذمة » عند أهل « الملة » مبينا عدالة الإسلام فى معاملة أهل الكتاب مفندا ما جاء فى الكتاب الأزرق تفنيدا منطقيا وتاريخيا .

ومما يذكر فى هذا الصدد ويلاق إعجاب المنصفين من السامعين والقراء

ما ذكره المؤلف من رعاية الإسلام أنّى كان ومع من يكون مما نعده عدالة مطلقة .

قصة اليهودى الذى رأته السماء . يقول الدكتور عبد الودود :

« وقد حدث فى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن سرق رجل مسلم درعا من بيت رجل مسلم . ثم ذهب السارق بهذه الدرع وأخفاها فى بيت رجل يهودى . وعندما اكتشفت الجريمة حاول المسلم السارق التنصل من التهمة وإلصاقها باليهودى ... ثم شهد أقارب السارق معه ضد اليهودى ورفع الأمر إلى النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

إن التهمة ثابتة على اليهودى والشهود كلهم ضده . وأى قاض لابد أن يصدر حكمه بالإدانة وتنفيذ العقوبة . ولكن الوحى ينزل من السماء فينفى عن اليهود تهمة السرقة ويدين السارق والشهود بالخيانة . ويسجل القرآن الكريم هذه الواقعة لتبقى دستورا خالدا إلى يوم القيامة قال تعالى :

« ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »

النساء (١١٢ ـ ١١٣)

وهذا النص العظيم كاف فى الدلالة على عدالة الإسلام .

ومن حق المسلم أن يعلنه وينوه به فى كل مكان وزمان . ولكن الدكتور عبد الودود شلبى أتى بكل ما يتصل بأهل الذمة من أقوال الفقهاء وأعمال الخلفاء والحكام ليضع الحقيقة منارة أمام كل ذى عينين ويرفع بها صوته

ليسمعها كل ذى أذنين ، فبين أن المسلمين مسئولون عن صيانة دمائهم وأموالهم وكنائسهم وأن الجزية فى مقابل هذا الدفاع .

فعلى بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ يقول : « إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا » وأحاديث الرسول كثيرة فى هذا الشأن أداها المؤلف لمحاوريه ومنها : « من آذى ذميا فقد آذانى . ومن آذانى فقد آذى الله » .

وقد شرح معنى الذمة شرحا يرضى العقل والعاطفة . فالذمة معناها : العهد والضمان والأمان .

وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام آمنين مطمئنين .

والمعمول به أن الجميع سواء فى الوطن الواحد . ولكن كلمة « الذمة »

تجعل معاملتهم فيها كثيرة من السماحة وحسن المعاملة ، وقد جرى العرف على ذلك حتى تمنى أحد العلماء فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهو الشيخ أحمد الدردير أن يعامل المسلمون فى مصر معاملة أهل الكتاب من الحكام .

وفى هذا الفصل كل ما يحتاج إليه الدارس أو المحاور من قوانين وأعمال تتصل بحرية التدين والعدالة فى الإسلام . ولما بلغ الدكتور عبدالودود الحديث عن أبى حنيفة (صاحب المذهب المعروف) قص قصته مع جاره غير المسلم المدمن لتعاطى الشراب والمعتاد الشغب كل ليلة مما يفسد على الإمام تهجده وكيف انه حين غاب عنه وعرف أنه وقع فى أيدى ــ الشرطة

ذهب بنفسه وأطلق سراحه قال اثنان ممن يحاورونه : إنها قصة رائعة لفيلم رائع .

كانت هذه الخلاصة المقتصدة فى يوم الخميس ، وجعل ميعاد آخر يكون يوم السبت .

وفى الحلقة الثانية من الحوار كاد الكلام يكون خاصا بمصر : وذلك لأن القراءة فى الكتاب الأسود أو الأزرق جعلت المحاربين جميعا فى حيرة ، والمؤلف محام فاشل لم يجد هواية له إلا الكذب على المجتمع المصرى . ولذلك جاءت عنوانات الحلقة الثانية هكذا :

قراءة فى الكتاب الأسود .
قتل غير المسلمين .
الاضطهاد المزعوم لمن .
كيف دخل الإسلام إلى مصر ؟
الإسلام وهل اعتنقه المصريون عن إقناع .
كلنا أقباط : مسلمون وغير مسلمين .
نموذج من الحبشة .
مصر وشعبها فى قفص الاتهام .
الاحصاء العام بين الحقيقة والتزييف .
تناقض وتخبط .
أصل المسلمين .
حقيقة الجزية .
صوت من مصر .
هذا الغضب الحقود لماذا ؟

كان اللقاء الثانى مع طلبة وطالبات كلية الحقوق يوم السبت ، لقد سبقوه إلى المسجد ووجدهم جميعا يقرءون فى الكتاب الأسود .

وفى طريقه إليهم أثناء ركوبه القطار من « أشفيلد » إلى شارع

« الكومونولث » كان يستعرض حياته صبيا وشابا ورجلا ، فيرى صباه فى قريته بين أهله وعشيرته من مسلمين ومسيحين وبذكر الصلات الحميمة التى كانت تربط أباه بجيرانه الأقباط المسيحين فى مصر ، وينتقل فجأة إلى ما يشاهده من تعصب فى استراليا على يد محام فاشل .

يقول الدكتور : وأنت تشاهد مثيله فى شمال الأطلنطى أو جنوب المحيط الباسفيكى من « سيدنى » إلى « واشنطن ونيويورك » إلى « أتاوا » فى كندا أو « لندن » « وجلاسجو » فى بريطانيا . ثم يرى نفسه مع أصحاب الحوار فى المسجد ومعهم دليل المناقشة « الكتاب الأسود » ومؤلفه مصرى .

وتدور الأسئلة التى تضم الحكومة المصرية بالتحيز للمسلمين فى التعليم والفرص المتكافئة فى الداخل والتعاقد مع الدول الأخرى فى الخارج .

وفى سماحة باهرة يجيب عن الأسئلة مع التنويه بما ذكره فى الحلقة الأولى . ومما شاقنى منه فى رده حديثه عن دخول الإسلام فى مصر وموقف العدالة التى كانت من العرب المسلمين الفاتحين من حيث التدين ودفع ما يسمى بالجزية وبيان البون الشاسع بين معاملة الرومان ومعاملة العرب ، وتنويهه بمنزلة مصر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وحديثه عن عروبة مصر ، وتسجيله نص المعاهدة التى أبرمها عمرو بن العاص مع أهل مصر .

ثم يؤرخ لأصل المصريين ، ويتعرض لتعداد المصريين قديما وحديثا ، وبذكر المراجع فلعروبة مصر يذكر ما ذكره المؤرخ اليونانى « شرابون » المتوفى سنة ٢٥ م الذى زار مدينة « قفط » قبل مولد المسيح بفترة فقال « إنها مدينة نصف عربية » ويذكر حكاية عمرو بن العاص وحضوره حفلا بالاسكندرية ضم كبارهم وعلية القوم منهم ، ولهم كرة من الذهب يترامى بها ملوكهم ،

وفى اعتقادى أن من تقع الكرة فى كمه لا يموت حتى يملكهم ، فلما جلس عمرو بن العاص فى هذا المجلس أقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كمه .

وفى تعرضه لأصل المصريين يذكر رأى الدكتورة نعمات أحمد فؤاد والدكتور فيليب رفلة ، وكلاهما يصر على أن المصريين جميعا من أصل واحد يقرر ذلك التاريخ والطب ...

يقول الدكتور فيليب رفله :

« إنه مما لا يعرفه الكثيرون فى خصوص وحدة الأصل للمسلمين والأقباط فى مصر أنه أجريت أبحاث على دماء كل منهما فى القرى والمدن فى الصعيد وفى الوجه البحرى فوجد الشمائل والتشابه الكبير بين فصائل الدم فى كل من الأقباط والمسلمين ... » وهذا التشابه لا تجده فى بعض الأوطان العربية .

أما الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فتناقش موضوع الأغلبية والأقلية وتعلن أنه لا يعقل أن يكون الفاتحون بضعة آلاف يكونون هم أصحاب الأغلبية ، فالذين بدءوا مع عمرو الفتح كانوا أربعة آلاف ، وعدد الشعب المصرى ثمانية ملايين وفى قول كانوا اثنى عشر مليونا .

هل من المعقول أو حتى من اللامعقول أن ثلاثين ألفا – لا أربعة آلاف – يضاف إليهم من لحق من قبائلهم ولو كانوا أضعافا أن يمسحوا بلدا وأى بلد ؟ بلدًا كمصر ويصيروا هم أصحابه وأغلبيته ؟

ومن ثم كان هذا رأى المؤلف أعلنه فى ندوة طنطا التى جمعت بين رجال الدين المسيحى وعلماء الأزهر وكان المؤلف من المتحدثين .. يقول الدكتور عبد الودود شلبى ص ٨٥ من الكتاب .

لقد زارنى فى مكتبى ـ مستشار ثقافى لإحدى الدول وفى معرض الحديث عن الحرية الدينية للأقباط فى مصر.

قلت له : أى أقباط تعنى ؟

قال : الأقباط !

قلت له : الأقباط قسمان : أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية.

ماذا تقول ؟

أقول الحقيقة .. ثم قلت له : فى سفارتكم موظفون من كلتا الطائفتين : حللوا فصيلة الدم طبقوا كل وسائل العلم ، هاتوا علماء الوراثة واختاروا نموذجين من أية مدينة أو قرية . لن تجدوا فارقا فى النهاية بين مسيحى ومسلم أو بين مصرى ومصرى.

وهذا كلام واضح جلى يؤيده العلم والواقع والتاريخ ، وقد قرأت أنا مقالا فى أثناء الحرب العالمية الثانية مترجما عن صحيفة انجليزية يتحدث فيه كاتبه عن المصريين ويؤيد ما يقول عن أصلهم بأنهم متفقون جميعا فى الصفات الجسمية والخلقية فى بنود أغلب الظن أنها خمسة وأربعون بندا ، وقال : إن الاستعمار البريطانى مضى عليه أكثر من نصف قرن ولم يتجنس أحد منهم بالجنسية الانجليزية ، على حين فرنسا تجنس كثير من أبنائها بالجنسية الألمانية ولما يمض على استعمارها خمس سنوات.

وقد عنى الدكتور فى هذه الحلقة بحكاية التعداد أو الاحصاء العام ، لأن السؤال جاءه بعد همس من محاوريه يقول مستر باتلر :

نريد أن نعرف عدد الأقباط المسيحين بالضبط ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال لجأ الدكتور عبد الودود إلى بحث تاريخى نشر فى إحدى المجلات ، وفى مقدمة البحث العناية بالحقائق لأن الأمر يخص « الوحدة الوطنية » وهى مقدمة عند كل باحث أو قارئ أو مهتم ، وأنا لا أستطيع أن أنقل إليك ذلك الاحصاء الذى يجرى كل عشر سنوات .

وقد قام بأول احصاء الاستعمار البريطانى سنة ١٨٩٧ م الموافق غرة المحرم ١٣١٥ هـ للتعرف على التركيب الحقيقى للمجتمع المصرى وقد قام بهذا الاحصاء المستشار البريطانى مستر « البرت » يعاونه مفتشوا وزارتى المالية والداخلية وهم من الانجليز ، وكانت النتيجة كالآتى :

بلغ مجموع سكان مصر ٩٫٧٣٤٫٤٠٥ نسمة منهم ٨٫٩٧٧٫٧٠٢ من المسلمين أى نسبة ٩٢٫٢٣ ٪ والباقى من المسيحين واليهود .

والمسيحيون ينقسمون إلى أقباط مصريين وإلى مسيحيين من أصول غير مصرية .

وينقسم الأقباط المصريين إلى أقباط أورثوذكس ٥٩٢٫٣٤٧ نسمة وأقباط بروتستانت ١٢٫٥٠٧ نسمة وأقباط كاثوليك ٤٫٦٢٠ نسمة ـ هذه هى سنة الأساس بالنسبة لتطور سكان مصر .

توالت عمليات الاحصاء كل عشر سنوات والنتيجة لم تتغير تقريبا .

وكان آخر احصاء سنة ١٩٧٦ وفيه ارتفعت نسبة السكان إلى ٣٦٫٦٥١٫١٨٠ منهم ٢٫٣١٥٫٥٦٠ من غير المسلمين أى بنسبة ٦٫٣٢ ٪ .

فإذا اعتبرنا أن الأقباط الأرثوذكس يمثلون ٩٠ ٪ من مجموع المسيحيين فإن عدد الأقباط الأرثوذكس فى مصر فى الوقت الحاضر هو فى حدود

المليونين فقط (٢٫٠٨٤٫٠٠٤) وكل كلام غير هذا يعد أوهاما فى رؤوس المتحدثين .

وفى الكتاب بيانات ينبغى الوقوف عليها ففيها الشفاء من كل داء .

ثم يأتى باحصاء مواليد ووفيات سنة ١٩٧٤ ليخرج بنتيجة فاصلة ، اتضح منها أن النسبة المئوية على أساس المواليد والوفيات لغير المسلمين تدور فى جميع الحالات حول ٦٫٢٢ ٪ وهو ما يؤكد صحة التعدادات المباشرة .

فليس من حق الأقلية أن تغمط حق الأغلبية فى التشريع والعدالة ، وغمط الأغلبية هو دكتورية الأقلية . وتتميما للإجابة قدم أمامهم بعض أقوال رجال الاحتلال البريطانى .

ففى مؤلف « مصر الحديثة » للمستعمر القح اللورد « كرومر » نجد وصفا من للروح المتعصبة لبعض الأقباط المتطرفين « مجلد ٢ فصل ٣٦ » الطبعة الانجليزية يقول : إن مبادئ الحيدة الدقيقة التى طبقها الحكم البريطانى كانت غريبة عن طبيعة القبطى ... فكان القبطى يقول لنفسه : إننى مسيحى والانجليز مسيحيون ، فلو كان الأمر بيدى لكنت تعصبت للمسيحيين على حساب المسلمين ... ويستمر فى التهكم على عقلية القبطى التى ترى العدالة بينه وبين المسلم نوعا من الظلم له .

وفى تقرير نرفوع إلى الحكومة البريطانية بتاريخ ١٠ مايو ١٩١١ يبين أن بعض المتطرقين الأقباط يثيرون الخواطر بدعوى أن الأقباط لا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها المسلمون فى مصر .

ويستفاد من تقريره أن لهم القدح المعلى فى الوظائف وغيرها مع النسبة المئوية للمسلمين ٩٢ ٪ ويمثل الأقباط أكثر قليلا من ٦ ٪ (٧٠٠ ألف) .

ففى وزارة الداخلية مثلا تضم إدارتها ٦٢٢٤ موظفا منهم ٢٣٤٦ مسلما بنسبة ٤٥ر٦٩ ٪ و٨٢٠ر٨ من الأقباط أى بنسبة ٦٥ ٪ .

يقول التقرير بعد بيان كل وزارة من هذا يتبين أن الأقباط يمثلون فى الجهاز الحكومى حيث العدد والمرتبات نسبة لا تتكافأ مطلقا مع نسبتهم العددية ، إننى لا أشجع أى نظام من شأنه أن يحدث انشقاقا بين الطوائف المسلمة والقبطية لأنه ليس فى صالح الطائفة القبطية (انتهى بتصرف) .

والمحامى الفاشل صاحب الكتاب الأزرق لو كان المسلمون يعاملونه حسب نيته لكانت الوظائف والمراحل التعليمية تتبع ما تشير إليه الإحصاءات والنسبة المئوية ، ولكن المسلمين بدافع من دينهم ودافع من عرقهم ونسبهم مع الأقباط المسيحين لا يرون للنسبة المئوية منزلا .

وهذا الشعور الأخوى هو الذى دفع المسيحين سن ١٩١٩ ليكونوا مع الثوار ضد الاحتلال يتلقون الرصاص ويهتفون تحيا مصر ولنا من مقولة «الدين للديان والوطن للجميع» شعار لا ينسى ، وكم كان للهتاف بالصليب مع الهلال ، وتبادل الخطب فى المساجد والكنائس ماحير المستعمر وثبط مبدأه القائل «فرق تسد» .

ومن هنا نجد المؤلف ينطلق بكل حماس وأريحية فيؤرخ للإسلام منذ خطا خطواته على شاطئ النيل فيجد الأقباط عدالة وودا وحياة رغدة سجلها التاريخ بأحرف من نور ـ كما يقولون ـ

فلماذا إذن ظهرت تلك السحابات السامة وتبدت فى بلاد ما وراء البحار ؟

يجيبك المؤلف الدكتور عبد الودود عن هذا السؤال وعن عنوان الكتاب فيقول إن المشكلة فى حقيقتها ليست مشكلة حقوق وواجبات فهؤلاء الذين يصرخون ويولولون صباح مساء يعلمون حق العلم أن حقوقهم مكفولة فى الوطن الأم ، وأن القانون لا يفرق بين مسلم أو مسيحى فى مصر . ولكن جوهر المشكلة والباعث الحقيقى لهذا السخط والثورة إنما هو الإسلام والدعوة إلى تطبيق شريعة الإسلام . ! !

ولا يترك الأمر عند هذا البيان والجواب المسكت بل يبين التسامح الإسلامى ويوازن بين ما فى مصر وما فى الحبشة من حيث المعاملة الحسنة فى مصر والمعاملة السيئة فى الحبشة بالنسبة للمسلمين وهم أكثرية ٦٥ ٪ أن رجلين من علماء الأزهر سافرا إلى اثيوبيا (الحبشة) لدراسة أحوال المسلمين فى شرق أفريقيا ، فما أن حلا فى أول مدينة منها ونزلا فى فندق من فنادقها ومكثا فيه ساعة ونصف ساعة حتى جاءهما الأمر بمبارحة المدينة .. ولم يدخلا الحبشة إلا بعد عشرة أيام وبعد سعى من وزارة الخارجية المصرية ، وهناك وجدا تعصبا مقيتا ضد المسلمين حرمان من التعليم وحرمان من الوظائف ، وحرمان للعباقرة من الدراسة خارج البلاد ، وحرمان من دراسة اللغة العربية والدين الاسلامى « راجع الكتاب من ص ١٠٤ وما بعدها » .

ومما أحزننى من هذه الحلقة الثانية حديث المؤلف عن الاضطهاد الدينى للمسلمين فى أفريقية وغيرها وقوله : ألم أقل لكم بأن المسلمين يعيشون خارج نطاق القانون الدولى وخارج نطاق الضمير الدولى ؟

وهنا يقفز الخاطر تاليا قول الله تعالى : « ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم » (٦٥ ـ سورة يونس)

وفى الحلقة الأخيرة نجد النور والظلمة ، والتعصب والتسامح فى ضوء الأحداث الجديدة والمأثورات القديمة جاء ذلك كله نتيجة حوار دائم بين الدكتور عبد الودود وبين محاوريه . وذكر بعض محاوريه ، ولم يكن ذلك الحوار متوقعا فى ذلك الحين .

فقد جاء وهم على وشك التوديع ، ومن ثم كانت تلك الحلقة جديرة بالتسجيل ، وقراءتها بوعى وانتباه ، ففيها انتهاز الفرص والدق على الحديد المنصهر حتى يؤثر تأثيره المرسوم ولكن ما جرى كان فرصة للدكتور عبد الودود أن يصول ويجول ويبين تسامح الإسلام وإلتزام المسلمين بتعاليمه على توالى العصور ، ويفضح كثيرا من المنتسبين للدين المسيحى من مخالفتهم لما جاء به السيد المسيح واتباعهم للهوى ومطالب الدنيا .

وفى هذه الحلقة لم يكن الكتاب الأسود هو دليل المناقشة ، إنما كان الدليل بيان أصدرته الجمعيات الاسلامية الاسترالية نشرته بصحيفة « التلغراف »[1] التى تصدر باللغة العربية فى مدينة « سيدنى » باستراليا ردا على بيان أذيع باسم الكنيسة الأورثوذكسية فى سيدنى فى ٣ / ٤ / ١٩٨٠ يذكر أحداثا وقعت فى مصر ضد الأقباط ، ويتهم الشعب المصرى المسلم بالتعصب وملخص الرد معروف للمصريين جميعا ، وإنما هو موجه لمن يعنيهم الأمر فى استراليا جاء فيه :

أن الشعب المصرى لم يعرف فى تاريخه كله شيئا من التعصب ، ولا يزال ملجأ لكل لاجئ ومضطهد ، ويكفى مصر فخرا أنها كانت ملجأ مختارا

(١) عدد الجمعة ١١ / ٤ / ١٩٨٠

للسيد المسيح ــ عليه السلام ــ وأمه السيدة مريم حين لجأ إلى مصر فرارا من المؤامرة التى دبرت ضده منذ ألفى عام .

وأن دخول الإسلام إلى مصر كان طوق النجاة للخلاص من اضطهاد الرومان ، ولينعم أبناء مصر بالأمن والحرية والإسلام يحترم السيد المسيح ويعتبر الإيمان برسالته ونبوته كالإيمان برسالة ونبوة محمد ، والإيمان بالإنجيل مثل الإيمان بالقرآن .

وقد قرر الإسلام من المبادئ والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم واحترام عقائدهم والحفاظ على أموالهم وحماية أعراضهم وأرواحهم .

ولقد نعمت كل الأقليات الدينية فى الدولة الاسلامية ، وبخاصة فى مصر بكافة الحقوق التى لم يجدوها فى دولة الرومان المسيحية وشاركوا أخوانهم المسلمين فى الحياة العامة وقد اعترف بهذا الأنبا شنودة بطريك الكنيسة الأورثوذكسية أكثر من مرة .

إن الجالية الاسلامية فى استراليا تدعو كل عادل أن يقرأ تاريخ الأقليات الدينية فى الدولة الاسلامية وسيرى هؤلاء المنصفون أن هذه الأقليات بلغت من الجاه والسلطة فى بعض مراحل التاريخ مكانة تفوق مكانة المسلمين فى الحكم والسلطة ، ولم تعترض الأغلبية الاسلامية على ذلك .

لم يسمع فى مصر قديما وحديثا أن مسلما اعتدى على غير مسلم بسبب دينه أو عقيدته ، فلا عدوان على النفس أو العرض أو المال .

لماذا لا يثار هذا الكلام إلا من بعض مسيحى مصر ، لقد عاش فى مصر مسيحيون من كل الأجناس وهنا فى استراليا ألوف من الأخوة اليونانيين

والإيطاليين والأرمن الذين هاجروا من مصر وإليها ، فهل نقل أحدهم شيء مما أذيع هنا ضد الشعب المصرى المسلم ؟

إننا نعلم أن كثيرين منهم يبكون شوقا كلما ذكر اسم مصر أمامهم ، ويتمنون أن يعودوا إليها .

إن الجالية الاسلامية الاسترالية حريصة كل الحرص على البقاء خارج هذه المؤتمرات التى تستهدف وحدة الصف والكلمة وتملأ النفوس بالحقد والكراهية ، فليس من مصلحة أى طرف أن ـ ينقل إلى استراليا البلد الذى اخترناه مهجرا أن ينقل إليها بذور الفتنة ويزرع فيها أشواك الحقد والكراهية ، بل يجب أن نكون جميعا أخوة ، ونعمل يدا واحدة ، لبناء صرح الاخاء والمحبة وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فى استراليا .

وهنا سأل محاوريه ومنهم الآنسة كاترين ، والسيدين ، بينز ، وماكد ونالد :

هل قرأتم ما فى هذا البيان بدقة ؟

وكان الجواب بالإيجاب وأنه ترجم لهم من العربية إلى الانجليزية ... ولقد سألوا غير المصريين ممن عاشوا فى مصر فأكدوا ما جاء فى البيان كلمة كلمة .

وقد كانت هذه الكلمات فاتحة خير للدكتور عبد الودود فانسابت من ذاكرته كل جرائم الغرب واتخذ أسلوب العازف عن ذكر المساوى فصب كل ما ضمنته الملفاة من شرور ، من عهد الحروب الصليبية إلى احتلال ايطاليا لليبيا ، وكم يأسى الإنسان أى إنسان له ضمير واحساس الآدمى على

ما جرى عند احتلال الجزائر ، إن رجال الاحتلال عمدوا إلى أعظم المساجد وهو مسجد « القشاوة » ليحولوه إلى كنيسة . ولكنهم لم يصلوا إلى مرادهم إلا على أجساد أربعة آلاف مسلم اعتصموا بالمسجد فخروا صرعى بطعنات السناكى والحراب .. وأقاموا الأفراح والليالى الملاح وأعلن سكرتير الحاكم العام أن آخر أيام الإسلام قد دنت . وفى خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح .

وما جرى فى ليبيا شبيه بما جرى للجزائر ، وكانت الطائرات تلق بمن يقول : إن نبيى محمد .

وكم للتعصب الغربى من موبقات ويكفى أن مسلمى الأندلس على كثرتهم لم ينج منهم أحد إما بالقتل أو الهرب .

لقد أحسن الدكتور عبد الودود القول حين استخدم المثل العربى القديم « رمتنى بدائها وانسلت » فالمتعصبون فى كل مكان وزمان ينعتون غيرهم بالتعصب وهم الغارقون فيه .

ولما انتهى من فضائح الغرب المسيحى والاستعمار ، وأعجب الحاضرون بمنطقه ، ورضوا ببراءة الإسلام ونبله وطهارته عادوا يسألونه ، وحددوا مطالبهم بسؤالين :

السؤال الأول : عن الاسلام وموقفه من الرق ؟

والسؤال الثانى : عن القرآن وهل قسم الناس إلى درجات تختلف باختلاف الرزق والجنس والعرق ؟

لقد وفق فى الاجابة كل التوفيق ، فأرخ للرق وبين أسبابه وموقف الأمم

منه قديما وحديثا . وألمع إلى الأديان السماوية الكبرى الثلاثة ووضح الأخطاء والأخطار التى وقعت من رجال الصوامع ورجال الكنائس والنصوص التى استندوا إليها فى اباحة الرق ، وبين أن الاسلام وجد الرق متعارفا به فقضى على أكثره . وما بقى منه تعقبه بالمبادئ وحسن التشريعات مثل التدبير والمكاتبة وأم الولد .

ولم ينس أن يذكر أن الغربيين تخونهم ذاكرتهم أو يتناسون ما فعلوا ، وضرب المثل بالسويسرى الذى لا يعرف عن مصر إلا أنها البلد الذى يحارب اسرائيل .

كذلك لم ينس ما حدث لافريقية حين هاجمها الاستعمار الغربى على مدى ثلاثة قرون يخطفون أبناءها وبناتها ليباعوا فى الأسواق وذكر قصة « جذور » وما قدمته من فضائح فى نقل الزنوج بالمراكب وكيف كان يلقى الذين يزيدون عن حولة المركب ؟ وترفع القضايا من أجل التجارة لا من أجل الإنسان .

وفى أثناء ذلك كشف عن مزايا الاسلام وأهله وكيف عاملوا الأرقاء الضعفاء . وقص القصص وقدم الأخبار وحين أتى إلى السؤال الثانى كان مفسرا حاذقا له قدرة على الأفهام وتأكيد الحقائق . كان السؤال عن القرآن وهل قسم الناس إلى طبقات ؟

يقول الدكتور عبدالودود شلبى فى الاجابة عن هذا السؤال . وأنا أسجل الجواب كما جاء فى الكتاب صفحة **١٥٣** وما بعدها . يقول :

أعتقد أنها تشير ـ الآنسة كاترين ـ بسؤالها هذا إلى الآية الثانية والثلاثين من سورة الزخرف :

« **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** .. » لقد فهم معنى هذه الآية على غير حقيقته وفسر تفسيرا بعيدا عن معناه الحقيقى الذى قصد به .

انظروا إلى الناس الجالسين هنا . سلوا كل واحد عن عمله وثقافته وأجره الذى يتقاضاه أو راتبه .

هل يأخذ العامل أجر المهندس ؟ وهل يحصل الطبيب على ما يحصل عليه الممرض ؟ . وهل يحصل السرجنت أو القيب فى الجيش على ما يحصل عليه الجنرال ؟ .

إن التفاوت بين المهندس والعامل ، أو بين الجندى والقائد ، أو بين الطبيب والممرض ليس تفاوتا فى الكرامة الانسانية ولا فى الحقوق أو العدالة ، انما هو تفاوت يختلف باختلاف المواهب وباختلاف طبيعة العمل ... وطبيعة الحياة البشرية قائمة على أساس هذا التفاوت فى المواهب مواهب الأفراد ، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت فى مدى اتقان هذا العمل .

وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة لخلافة الإنسان عن الله فى هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخا مكررة ما أمكن أن تقوم للحياة فى هذه الأرض قائمة . ولتعطلت أعمال كثيرة لا تجد من يقوم بها .

« **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** »

فدولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما . وليس معنى التسخير هنا الاستعلاء استعلاء طبقة على طبقة أو استعلاء فرد على فرد . كلا .

وهذا المعنى يعقده من لا يعرف حقائق التنزيل ومرامى الاسلام . فَيَلْوِنْ المعنى حسب ما فى نفسه أو حسب قدرته دون ترو والأمر أيسر من ذلك ، فالمعنى المراد من كل إنسان مسخر للآخر ، وواقع الحياة يدلك على مفهوم . فليس هناك إنسان قادر على القيام بمطالبه جميعا من زراعة وصناعة وتجارة وقيادة للجيوش وبناء للمنازل وتنظيف الشوارع إلى آخر المطالب ولقد أدرك ذلك أبو العلاء المعرى فصاغه شعرا قال :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

أما بعد :

فقد رضيت عن هذا الكتاب كما رضى بما جاء فيه من حاوروا مؤلفه على مدى الأيام والساعات ففى هذا الكتاب علم غزير على وجازته (١٥٧) صفحة من القطع المتوسط يأخذ بيد القارئ إلى معارف صادقة واضحة عن الدين الاسلامى ومميزاته بالنسبة للديانات الأخرى . ويعمق تعميقا معلوماتك بوطنك مصر تاريخا ودينا وحضارة . ويبصر الآخرين بتلك المزايا .

والمؤلف ولا سيما فى الحلقة الأخيرة يستخدم فى كتابته وسائل التعبير المتنوعة التى تتبلور لتعطيك امتاعا واقتناعا فهو يستخدم القصص والحوار والمناظرة والموازنة والشرح وضرب المثل فى عبارة سهلة يسيرة ولكنها نقية بصيرة .

وعند انتهاء كل حوار يشوقك لتنتظر الحلقة التى بعدها .

وقد ختم الكتاب بقصتين إحداهما تمثل سماحة الاسلام والمساواة بين الناس .

والأخرى تمثل النظام العنصرى فى أسوأ حالاته .

القصة الأولى قصة « فرتونة والخليفة » والقصة الثانية قصة « الكنيسة والمسجد » . ففى القصتين خلاصة ما يرى فى الحياة وما ينشده البشر ، وما أراده الخالق وبخل به المخلوق .

وكنت أود أن يكون طبع هذا الكتاب ونشره عام ١٩٨٠ ولكنه مع ذلك صالح للقراءة فى هذا العام ١٩٨٦ والأعوام التى تليه ، لأنه كتاب يخدم الدين ويرعى الوطن[1] .

---

(١) مجلة الأزهر بقلم السيد حسن قرون



الحلقة الأولى من الحوار

دق جرس التليفون صباح يوم بارد في غرفة مكتبي بمسجد الملك فيصل الواقع في شارع كومونولث Common Wealth بمنطقة سرى هيلز Surry Hills .

ـ المركز الإسلامي ؟

ـ نعم .. هنا المركز الإسلامي .

ـ أنا الآنسة فيفيان من كلية الحقوق ـ جامعة سيدني ـ ونرغب في لقائكم لاجراء حوار حول ما نشر عن الإسلام وحقوق الإنسان .. فهل تسمحون لنا بالزيارة واجراء هذا الحوار .

ـ بكل سرور ... وأنا في انتظاركم الآن ..

ـ معذرة فلن نتمكن من اتمام هذه الزيارة قبل يوم الخميس .. الساعة الثالثة ظهراً ..

ـ سأكون في انتظاركم في نفس الموعد .. بمشيئة الله ..

ـ شكراً .. وإلى اللقاء ..

* * *

لقد عاش الشعب الأسترالي بعيداً عن الجدل العقائدي طوال قرنين من الزمان .. فاستراليا بمفهومها الدولي المعروف لا يزيد عمرها

عن مائتي عام ... ولم يكن في حسبان أحد من المستوطنين أن يأتي يوم يصبح فيه هذا النوع من الجدل الديني شائعاً بين الناس ...

ولكن الأمر تغير كثيراً بعد أن فتحت استراليا أبوابها لهجرة الكثيرين من مختلف البلدان ... وقد حمل هؤلاء المهاجرون ضمن ما حملوا من الأمتعة عقائدهم الدينية ، وخلافاتهم المذهبية ، ولم يحاولوا التخلص من أحقادهم القديمة حتى ظهرت فجأة في موجة عنيفة . كريهة .. بشعة ...

لقد صرح كثير من المسؤولين أن العقيدة الدينية لا تعنيهم في شيء ... بل أن المستر « ويتلم » رئيس وزراء الحكومة العمالية السابق والمستر « ران » رئيس وزراء ولاية نيوسوث ويلز ـ الحالى ـ صرحا أكثر من مرة بأنهما ملحدان .. ولا يدينان بأى دين من الأديان ..

والشعب الأسترالي لا يعرف عن دينه أكثر من أعياد الميلاد ... وهي معرفة لا تتجاوز ما يصاحب هذه الأعياد من فرح ومتعة تصاحب هذه الأعياد ؟

ومع الموجات الجديدة للهجرة .. بدأت تظهر على سطح هذه الحياة الوادعة فقاعات سامة ... ووجدت جراثيم الكراهية والبغضاء ـ فرصة للتضليل والفتنة .

* * *

وفي اليوم المحدد . وفي تمام الساعة الثالثة بالضبط .. دلف إلى ساحة المسجد مجموعة من الأساتذة والطلاب .. فاستقبلتهم مرحباً .. وتعرفت عليهم واحداً واحداً .. ثم بدأ الحوار .. وان شئت فقل . بدأ اطلاق النار ... !

في البداية .. أخرج الأساتذة والطلاب كتاباً أزرق الغلاف ... أسود القلب . ! كتبه محام فاشل . هاجر إلى استراليا بعد أن فشلت محاولاته الساذجة لإثارة الفتنة الطائفية في مصر .

قلت للمستر كلارك والآنسة فيفيان : هاتوا ما عندكم من أسئلة ..

قالت الآنسة فيفيان : لقد حضرت هذا الحوار الرائع في كنيسة ستراثفيلد ونقلت ما دار في هذا الحوار إلى الأساتذة والطلاب الذين رغبوا في اقامة مثل هذا الحوار عن الإسلام وحقوق الإنسان في هذا العصر . وبخاصة بعد قراءتنا لهذا الكتيب الذي تناقض كل كلمة فيه ما سبق أن قلته وأعلنته في حوار ستراثفيلد .. !

قلت للآنسة فيفيان : إضربي لي مثلاً .

وهنا بدأت تقرأ من هذا الكتيب آيات القرآن الكريم التي تحذر من موالاة اليهود ، والنصارى ، وتأمر المسلمين باتخاذ الحذر ـ والحيطة منهم ليلاً ونهاراً ... !

وقبل أن تنتهي من القراءة . رفعت يدي مقاطعاً ...

ـ إنني لم أنته بعد من القراءة .. ؟

ـ سأتولى ذلك نيابة عنك . يا آنسة فيفيان ...

أولاً : ـ حرصاً على راحتك من ناحية ... وثانياً . لتوفير الوقت الضائع في الاستطراد والقراءة ... ؟

ولا تظني أني أقاطعك .. فالمقاطعة هروب من الحقيقة .. والحقيقة هي هدفنا الأسمى وان كان لكل شيخ طريقة .. ! ! !

لقد فهمت هذه الآيات فهماً خاطئاً ، فمن المعروف عندنا نحن

المسلمين أن القرآن كان ينزل من السماء لبيان حكم معين . وفي ظرف معين ، ولا يمكن فهم الآيات على وجهها الصحيح ـ قبل الاحاطة بأسباب نزول هذه الآيات . والظروف التي أنزلت فيها هذه الآيات ، والا كان مثلنا كمثل هذا الرجل الذي ترك الصلاة وانقطع عن المسجد لأنه فصل بين آيتين من القرآن ترتبط إحداهما بالأخرى أشد الارتباط .

فقد جاء في القرآن الكريم ، ويل للمصلين « الذين هم عن صلاتهم ساهون »[1] .

إن قراءة الآية الأولى مستقلة عن الثانية تعني أن الصلاة هلاك ودمار . ولهذا لا يجب أن نصلي ... (ضحك) ...

ومن باب المزاح والتظرف أقول : إن شاعرا ماجنا أسرف في شرب الخمر وحين طلب إليه أن يقلع ويتوب قال ساخراً :

إن الله لم يقل ويل لشاربي الخمر . بل قال « ويل للمصلين .. » (ضحك) .

ولقد وقع كثير من المستشرقين في هذا الخطأ . فنادراً ما يتعلم الإنسان لغة غير لغته ثم يجيد هذه اللغة .. ان خطأ يسيراً في كلمة واحدة يقلب المعنى رأساً على عقب .

لقد حضر إلينا في مصر مستشرق أميركي حاول ترجمة بحث ديني مليء بنصوص القرآن والأحاديث النبوية .. وكانت المفاجأة في هذه الترجمة أن الأستاذ الكبير ترجم كلمة (حديث) التي تعني فى الاصطلاح الإسلامى قول النبى أو فعله . ترجم هذه الكلمة إلى مرادفها فى اللغة الإنجليزية (Modern) وطبقاً لهذا الفهم خرجت

(١) الماعون – ٤/٥ .

الترجمة جنيناً شائهاً لا يعرف ذكراً كان أم أنثى (ضحك) ... !

فما قصة هذه الآيات التي أشارت إليها الآنسة فيفيان ..

يقول الله تعالى :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » .. (آل عمران – ٢٨) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين »
(النساء – ١٤٤)

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. »
(المائدة – ٥١)

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ... »
(الممتحنة – ١)

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ... »
(الممتحنة – ٩) .

إلى غير ذلك من الآيات التي يوحي ظاهرها بالدعوة إلى مقاطعة غير المسلم واعتباره رجساً من عمل الشيطان المجرم ... ! ! !

فهل الأمر كذلك ؟ ...

إن الذي يتأمل الآيات المذكورة تأملاً فاحصاً ، ويدرس تواريخ نزولها وأسبابه وملابساته يتبين له ما يأتي[1] :

أولاً – ان النهي انما هو عن اتخاذ المخالفين أولياء بوصفهم جماعة متميزة بديانتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها ، لا بوصفهم جيرانا أو زملاء أو مواطنين . والمفروض أن يكون ولاء المسلم للأمة المسلمة

---

(١) انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د . يوسف القرضاوي ص ١٦ وما بعدها .

وحدها ، ومن هنا جاء التحذير في عدد من الآيات من اتخاذهم أولياء « من دون المؤمنين » . أي أنه يتودد إليهم ويتقرب لهم على حساب جماعته . لأن فى ذلك خيانة للأمة . وخروجاً على نظام الدولة . ولا يرضى نظام ديني ولا وضعي لأحد من أتباعه أن يدع جماعته التي ينتسب إليها ويعيش بها ، ليجعل ولاءه لجماعة أخرى من دونها .

لماذا نحارب الشيوعية مثلاً ؟

لأن الشيوعى يكون ولاؤه لطبقته لا لوطنه . ولهذا كانت دوائر الهجرة الأسترالية تتحرى عن تاريخ الراغبين في الهجرة . فإذا كان أحدهم شيوعياً ، منع من هذه الهجرة ولم يسمح له بدخول استراليا ..

ثانياً – إن الموادة التي نهت عنها الآيات . إنما هي موادة من آذى المسلمين وحاد الله ورسوله . ومما يدل على ذلك :

(١)قوله تعالى في سورة المجادلة . (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) ومحادة الله ورسوله ليست مجرد الكفر بهما ، بل محاربة دعوتهما ، والوقوف في وجهها ، وايذاء أهلها .

(ب) قوله تعالى في مستهل سورة الممتحنة (تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) ؟

فالآية تعلل تحريم المولاة أو الإلقاء بالمودة إلى المشركين بأمرين مجتمعين : كفرهم بالإسلام وإخراجهم للرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق .

(حـ) قوله تعالى في نفس السورة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) ..

فقسم المخالفين في الدين إلى فريقين :

فريق كان سلماً للمسلمين لم يقاتلهم في الدين ولم يخرجهم من ديارهم . فهؤلاء لهم حق البر والإقساط إليهم .

وفريق اتخذوا موقف العداوة والمحادة للمسلمين . بالقتال أو الإخراج من الديار أو المظاهرة والمعاونة على ذلك . فهؤلاء يحرم موالاتهم . مثل مشركي مكة الذين ذاق المسلمون على أيديهم الويلات . ومفهوم هذا النص أن الفريق الآخر لا تحرم موالاته .

ثالثاً ـ ان الإسلام أباح للمسلم التزوج من أهل الكتاب ، والحياة الزوجية يجب أن تقوم على السكون النفسي والمودة والرحمة ، كما دل على ذلك القرآن في قوله تعالى : «ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» .

وهذا يدل على ان مودة المسلم لغير المسلم لا حرج فيها ، وكيف لا يواد الرجل زوجته إذا كانت كتابية ؟ وكيف لا يواد الولد جده وجدته وخاله وخالته إذا كانت أمه ذمية ؟

رابعاً : ان الحقيقة التي لا شك فيها ان الإسلام يؤكد اعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها ، سواء كانت نسبية أو اقليمية أو عنصرية

أو طبقية ، فالمسلم أخو المسلم ، والمؤمنون أخوة ، والمسلمون أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

وهذا ليس في الاسلام وحده ، بل هي طبيعة كل دين ، وكل عقيدة ، ومن قرأ الإنجيل وجده يؤكد هذا المعنى في أكثر من موقف »[1] .

بل حدث هنا في استراليا ـ في أعقاب الثورة الايرانية ـ أن بعض المسلمين الذين هاجروا إلى استراليا . وحصلوا على الجنسية الاسترالية . حدث ان استدعى هؤلاء المسلمون إلى بعض الدوائر الرسمية ثم سئلوا هذا السؤال :

لو هاجمت دولة أندونسيا أستراليا . فلمن يكون ولاء المسلم في هذه الحالة ؟ مع أستراليا أم مع أندونسيا ؟

فكان جواب هذا البعض من المسلمين يكون ولاؤنا مع الحق .. سواء أكان هذا الحق في جانب استراليا أم في جانب أندونسيا ... ؟

مستر باركر والسيدة بريجيت :

إننا نشكرك على هذا التوضيح .. ونرجو الا يضيق صدرك بأسئلتنا التي تبدو قاسية في أسلوبها الصريح .. !

... إننا نعتقد بأن العالم يتجه إلى التقارب .. وفي عصر التكنولوجيا لم تعد هناك مسافات .. ان الشعوب تسعى بفطرتها إلى مزيد من التفاهم . والتفاهم يحتاج إلى اعادة النظر فى المواريث القديمة التى مزقت عرى الإخاء والمودة بين بنى البشر...

وبالتالي يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث . ولقاؤنا هذا خطوة

---

(١) المصدر السابق .

متواضعة في الطريق إلى هذا الهدف ..

ولهذا فلا بد أن نسأل ... وأن نكون صرحاء ـ وأن نعبر عما في أنفسنا دون غموض أو خفاء ...

ـ أشكر السيدة بريجيت والسيد باركر على حسن ظنهما هذا ... وأضيف فوق ذلك إن هذا الذى تسعون إليه ، وتعملون له سبق إليه القرآن منذ أربعة عشر قرناً ـ حيث يقول :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. » (الحجرات ـ ١٣) .

فلا خلاف بيننا في الهدف . ولا في الوسيلة التي تحقق هذا الهدف وان كنا نحن المسلمين ، سبقناكم إلى هذه الدعوة بأربعة عشر قرناً ..!

ـ شيء جميل حقاً .. نسمعه لأول مرة ـ وهو مما يشجعنا على السؤال عن حقوق غير المسلمين في المجتمعات التي تطبق الشريعة الإسلامية ..

قلت للمستر باركر والسيدة بريجيت والى الزميلات والزملاء المشتركين فى هذه الندوة :

ـ هل قرأتم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ؟

ـ قرأناه جميعاً .

ـ متى صدر هذا الاعلان ؟

ـ منذ حوالي ثلاثين عاماً تقريباً .

ـ وماذا عن الثورة الفرنسية ؟

ـ لقد درسناها أيضاً ونحفظ شعاراتها جيداً ...

ـ هل تذكرون متى كانت هذه الثورة ؟

- منذ حوالي مائتي عام تقريباً .
- هل تذكرون قبلها شيئاً ... ؟
- لا ... لا نعرف عن ذلك شيئاً .
- أما نحن المسلمين فنعرف .. نعرف أول ثورة حقيقية قامت لتحرير الإنسان فوق هذه الأرض ... تحريره جسداً ... وتحريره عقلاً ... وتحريره روحاً ... لم تكن ثورة من تلك الثورات المعروفة قديماً وحديثاً ... بل كانت هداية ورحمة للناس جميعاً .
- ومتى قامت هذه الثورة ؟
- منذ أربعة عشر قرناً ..
- على يد من كانت ؟
- على يد النبي محمد ... ! ! !

* * *

وهنا التزم الجميع بالصمت ... ، ونظر بعضهم إلى بعض ... وخيل إليَّ أنهم غير مصدقين لما قلت ..

قلت للمستر كلارك والسيدة بريجيت :

إن للمسيحين واليهود - في الإسلام - معاملة خاصة . ومنزلة خاصة ... كما يعرفون في الإسلام باسم « أهل الذمة » .

فهم « أهل ذمة » والذمة معناها العهد . والضمان والأمان وانما سموا بذلك لأن لهم عهد الله . وعهد رسوله ، وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام آمنين مطمئنين ، فلهم ما للمسلمين من حقوق . وعليهم ما على المسلمين من واجبات .

أول هذه الحقوق هو الحماية وهذه الحماية تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلي .

أما الحماية من الاعتداء الخارجي ، فيجب لهم ما يجب للمسلمين. وعلى الإمام أو ولى الأمر فى المسلمين بما له من سلطة شرعية ، وما لديه من قوة عسكرية ، أن يوفر لهم هذه الحماية . وكما يقول بعض الفقهاء :

« يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم ، وفك أسرهم ، ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب ، بل كانوا بدارنا ، ولو كانوا منفردين ببلد » وعلل ذلك بأنهم : « جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم ، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين »[1] .

وينقل الإمام القرافي المالكي في كتابه « الفروق » قول الإمام الظاهري ابن حزم في كتابه مراتب الإجماع :

« أن من كان في الذمة ، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت ، دون ذلك ، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) فإن تسليمه دون ذلك اهمال لعقد الذمة[2] . وحكي في ذلك إجماع الأمة .

وعلق على ذلك القرافى بقوله : « فعقد يؤدي إلى اتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع – انه لعظيم »[3] .

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الإسلامي ، موقف شيخ الإسلام ابن تيمية حينما تغلب التتار على الشام ، وذهب الشيخ ليكلم « قائد

---

(١) مطالب أولى النهى ج ٢ ص ٦٠٢ – ٦٠٣ .

(٢) الفروق ج ٣ ص ١٤ – ١٥ – الفرق التاسع عشر والمائة .

(٣) نفس المصدر السابق .

التتر » في اطلاق الأسرى ، فسمح القائد التتري للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له باطلاق أهل الذمة فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال :

لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة . فلما رأى اصراره وتشدده اطلقهم له .

* * *

أما الحماية من الظلم الداخلي ، فهو أمر يوجبه الإسلام ويشدد في وجوبه ، ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى أو عدوان ، فالله تعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم ، بل يعاجلهم بعذابه في الدنيا أو يؤخر لهم العقاب مضاعفاً في الآخرة .

وقد تكاثرت الآيات والأحاديث الواردة فى تحريم الظلم وتقبيحه وبيان آثاره الوخيمة في الدنيا والآخرة ، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة .

يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة »[1] . وقال : « من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة »[2] .

وقال أيضاً : « من آذى ذميا فقد آذاني . ومن آذاني فقد آذى الله »[3] .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي . انظر : السنن الكبرى ج ٥ ص ٢٠٥ .
(٢) رواه الخطيب باسناد حسن .
(٣) رواه الطبراني في الأوسط باسناد حسن .

ولهذا كله اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين ، بدفع الظلم عن أهل الذمة وكف الأذى عنهم ، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قبلهم .

كان عمر – رضي الله عنه – يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة ، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى ، فيقولون له : « ما نعلم الا وفاء »[1] أي بمقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين وهذا يقتضي أن كلا من الطرفين وفى بما عليه .

وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يقول : إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا[2] .

وفقهاء المسلمين من كافة المذاهب الاجتهادية صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة والمحافظة عليهم ، لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم ، وهم صاروا به من أهل دار الإسلام ، بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم اثماً[3] !

* * *

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢) المغني ج ٨ ص ٤٤٥ البدائع ج ٧ ص ١١١ نقلاً عن أحكام الذميين والمستأمنين ص ٨٩ .

(٣) ذكر ذلك ابن عابدين في حاشيته وهو مبني على أن الذمي في دار الإسلام أضعف شوكة عادة ، وظلم القوي للضعيف أعظم في الاثم . انظر في هذا الموضوع . غير المسلمين في المجتمع الإسلامي – د . يوسف القرضاوي ٩ .

ثانياً ـ حفظ النفس :

دم الذمي كدم المسلم . فان قتل مسلم أحدا من أهل الذمة ، اقتص منه كما لو قتل مسلماً .

« وقد روي أن رجلاً من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أنا أحق من وفى بذمته » . ثم أمر به فقتل »[1] .

« وفي زمان عمر رضي الله عنه قتل رجل من بني بكر بن وائل رجلاً من أهل الذمة بالحيرة فأمر عمر رضي الله عنه بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول ، فسلم إليهم فقتلوه[2] .

وفي خلافة علي كرم الله وجهه أخذ رجل من المسلمين بقتل ذمي ، وقامت الحجة عليه فأمر بالقصاص . فجاءه أخو المقتول وقال : قد تركت القود . ولكنه لم يرض بذلك وقال : لعلهم فزعوك أو هددوك ، فقال : لا ، بل قد أخذت الدية ولا أظن أخي يعود إليَّ بقتل هذا الرجل . فأطلق علي سراح القاتل وقال : « من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا »[3] .

وفي رواية أخرى أن علياً رضي الله عنه قال : إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا ، ومن هذا استنبط الفقهاء

---

(١) العناية في شرح الهداية ج ٨ ص ٢٥٦ . وقد روى الداراقطني هذا الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه ، ولفظه : أنا أكرم من وفى بذمته .

(٢) البرهان في شرح مواهب الرحمان ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٣) البرهان ج ٢ ص ٢٨٢ .

أنه إن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة خطأ ، كانت ديته كدية قتله أحدًا من المسلمين خطأ[1] .

* * *

ان القانون في الدولة الإسلامية لا يفرق بين مسلم وغير مسلم . فالذي يعاقب به المسلم يعاقب به الذمي أيضاً . وان سرق مسلم مال الذمي ، أو سرق ذمي مال المسلم ، قطعت يد السارق في كلتا الحالين . كذلك ان قذف ذمي رجلاً أو امرأة بالزنا ، أو فعل ذلك أحد من المسلمين أقيم حد القذف على كل منهما على السواء . وقل مثل ذلك في الزنا فهما سواء في حده أيضاً ، إلا الخمر ، فان أهل الذمة قد استثنوا من حدها فى الإسلام[2] .

وقد حدث في عهد النبي (ص) ان سرق رجل مسلم درعاً من بيت رجل مسلم . ثم ذهب السارق بهذه الدرع وأخفاها في بيت رجل « يهودى » . وعندما اكتشفت الجريمة حاول المسلم السارق التنصل من التهمة وإلصاقها باليهودى الذى لم يكن يعرف شيئاً عن السرقة ... ثم شهد أقارب السارق معه ضد اليهودى .. ورفع الأمر إلى النبى محمد .

ان التهمة ثابتة على اليهودي .. والشهود كلهم ضده .. وأي قاض لا بد أن يصدر حكمه بالإدانة ، وتنفيذ العقوبة .

ولكن الوحي ينزل من السماء .. فينفي عن اليهودي تهمة السرقة ،

---

(١) الدر المختار ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) كتاب الخراج ص ٢٠٨ ـ ٥٠٩ . المبسوط ج ٩ ص ٥٧ ـ ٥٨ ويرى الإمام مالك رحمه الله أن الذمي مستثنى من حد الزنا كحد الخمر ، ويستنبط حكمه هذا من قضاء عمر رضي الله عنه بأن الذمي ان زنى يترك أمره إلى أهل سنته ـ أي يعمل بقانون أحواله الشخصية . انظر في ذلك : حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية لمولانا المودودي .

ويدين السارق والشهود بالخيانة .. ويسجل القرآن الكريم هـذه الواقعة لتبقى دستوراً خالداً إلى يوم القيامة .

« ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتانا وإثماً مبيناً . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » النساء ١١٢ / ١١٣ .

أكثر من هذا ..

فقد حدث أيام عمر بن الخطاب الخليفة الثانى من خلفاء النبى ..

أن ـ على بن أبي طالب ـ ابن عم النبى . وزوج ابنته .. ووالد أحب الناس إليه ، الحسن والحسين . حدث أن تنازع ، علي ، مع رجل يهودي حتى بلغ الأمر عمر بن الخطاب . فلما مثلا أمامه في مجلس قضاء ..

قال عمر لعلي . قف يا أبا الحسن .. !

فظهر الغضب في وجه ـ علي ـ ؟

فقال عمر : أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك « اليهودي » في القضاء ؟

فقال علي : لا . ولكنني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فقلت « يا أبا الحسن » .. ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعته معي من التعظيم ... !

ومن أشهر وصايا عمر في العدل تلك الرسالة التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري ـ رئيس القضاة ـ في ذلك الوقت وقوله له :

« آس – سو – بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ..

هكذا يطلب عمر من القاضي ألا يفرق بين المتخاصمين في النظرة .. وفى الكلمة .. وفى طريقة السؤال وهى أمور تبدو بسيطة وتافهة ..

ولكن هذه الأمور التي تبدو بسيطة وتافهة تترتب عليها أحكام خطيرة .. وتقع بسببها مشاكل كثيرة ..

* * *

ثالثاً – حماية الأموال :

« ... وهذا مما اتفق عليه المسلمون ، في جميع المذاهب وفي جميع الأقطار ، ومختلف العصور» .

فقد روى أبو يوسف في « الخراج » ما جاء في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران .

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ..

وفى عهد[1] عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أن : « امنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها » .

وقد مر بنا قول على « إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا » وعلى هذا استقر رأى المسلمين طوال العصور .

فمن سرق مال ذمي قطعت يده ، ومن اغتصبه عزر وأعيد المال إلى صاحبه ، ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه ، فان مطله وهو غني حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه .

---

(١) المراد بكلمة عهد هنا – الوصية – .

وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم . أنه يحترم ما يعدونه ، حسب دينهم مالاً وان لم يكن مالاً في نظر المسلمين .

فالخمر والخنزير لا يعتبران عند المسلمين مالا متقوما ، ومن أتلف لمسلم خمرا أو خنزيراً لا غرامة عليه ولا تأديب ، بل هو مثاب مأجور على ذلك ، ولا يجوز للمسلم أن يمتلك هذين الشيئين لا لنفسه ولا ليبيعها للغير .

أما الخمر والخنزير إذا ملكها غير المسلم فإنها تعتبر عنده مالاً ، بل من أنفس الأموال ، كما قال فقهاء الحنفية ، فمن أتلفها على الذمي غرم قيمتها ! .

* * *

رابعاً ـ حماية الأعراض :

ويحمي الإسلام عرض الذمي وكرامته ، كما يحمي عرض المسلم وكرامته ، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل ، أو يشنع عليه بالكذب ، أو يغتابه ، ويذكره بما يكره في نفسه أو نسبه أو خَلْقه أو خُلقه أو غير ذلك مما يتعلق به .

يقول الفقيه الأصولي المالكي شهاب الدين القرافي في كتاب « الفروق » . « ان عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة

سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام »[1] .

وفي الدرّ المختار من كتب الحنفية . « يجب كف الأذى عن الذمي وتحرم غيبته كالمسلم » .

ويعلق العلامة ابن عابدين على ذلك بقوله : لأنه بعقد الذمة وجب له مالنا فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته ، بل قالوا ان ظلم الذمي أشد[2] .

* * *

خامساً ـ التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر :

وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين في ظل دولته ، كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم ، لأنهم رعية للدولة المسلمة وهي مسؤولة عن كل رعاياها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته »[3]

وهذا ما مضت به سنة الراشدين ومن بعدهم .

ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق ، وكانوا من النصارى :

« وجعلت لهم ، أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو اصابته آفة من

---

(١) الفروق ج ٣ ص ١٤ الفرق التاسع عشر والمائة .

(٢) الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٣ ص ٣٤٤ - ٣٤٦ ط استانبول .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»[1] وكان هذا في عهد أبي بكر الصديق ، وبحضرة عدد كبير من الصحابة وقد كتب خالد به إلى الصديق ولم ينكر عليه أحد ، ومثل هذا يعد إجماعاً .

ورأى عمر بن الخطاب شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عن ذلك ، فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأتاه إلى ذلك ، فأخذه وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين وأمره أن يقرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم ، وقال في ذلك :

ما انصفناه إذا أخذنا منه الجزية شابًا ، ثم نخذله عند الهرم[2] .

وبهذا تقرر الضمان الاجتماعي في الإسلام ، باعتباره «مبدأ عاماً» يشمل أبناء المجتمع جميعاً . مسلمين وغير مسلمين . ولا يجوز أن يبقى في المجتمع المسلم انسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج ، فان دفع الضرر عنه واجب ديني ، مسلماً كان أو ذمياً :

وذكر الإمام النووي في «المنهاج» أن من فروض الكفاية : دفع ضرر المسلمين ككسوة عار ، أو اطعام جائع إذا لم يندفع بزكاة وبيت مال .

ووضع العلامة شمس الدين الرملي الشافعي في «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج» أن أهل الذمة كالمسلمين في ذلك ، فدفع الضرر عنهم واجب .

---

(١) رواه أبو يوسف في «الخراج» .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

ثم بحث الشيخ الرملي رحمه الله في تحديد معنى دفع الضرر فقال : وهل المراد بدفع الضرر ما يسد الرمق أم الكفاية ؟ قولان ، أصحهما ثانيهما . فيجب في الكسوة ما يستر كل البدن على حسب ما يليق بالحال من شتاء وصيف ، ويلحق بالطعام والكسوة ما في معناهما ، كأجر طبيب ، وثمن دواء وخادم منقطع ، كما هو واضح .

قال : ومما يندفع به ضرر المسلمين والذميين فك أسراهم[1] .

* * *

سادساً ـ حرية التدين :

ويحمي الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة ـ حق الحرية .

وأول هذه الحريات : حرية الاعتقاد والتعبد ، فلكل ذي دين دينه ومذهبه ، لا يجبر على تركه إلى غيره ، ولا يضغط عليه أي ضغط ليتحول منه إلى الإسلام .

وأساس هذا الحق قوله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[2] وقوله سبحانه : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[3] ؟

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى : أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فانه بين واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه .

---

(١) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي ج ٨ ص ٤٦ كتاب «السير» .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٣) « يونس » الآية ٩٩ .

وسبب نزول الآية ـ كما ذكر المفسرون ـ يبين لنا جانبا من إعجاز هذا الدين ، فقد رووا عن ابن عباس قال :

كانت المرأة تكون مقلاة ـ قليلة النسل ـ فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده (كان يفعل ذلك نساء يثرب فى الجاهلية) فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار . فقال آباؤهم : لا ندع أبناءنا (يعنون : لا ندعهم يعتنقون اليهودية . فأنزل الله عز وجل هذه الآية (لا اكراه فى الدين)[1] .

فرغم أن محاولات الاكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم في دينهم وقوميتهم ، ورغم الظروف الخاصة التى دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار. ورغم ما كان يسود العالم كله حينئذاك من موجات التعصب والاضطهاد للمخالفين في المذاهب ، فضلاً عن الدين ، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيرت رعاياها حينا بين التنصر والقتل ، فلما تبنت المذهب «الملكاني» أقامت المذابح لكل من لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم .

رغم كل هذا ، رفض القرآن الاكراه ، بل من هداه الله وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة . ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فانه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً (كما قال ابن كثير) . فالايمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تلفظ باللسان

(١) نسبه ابن كثير إلى ابن جرير ، قال : «قد رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن حيان في صحيحه .. وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم انها نزلت في ذلك .. «تفسير ابن كثير» ج ١ ص ٢١ .

أو طقوس تؤدى بالأبدان ، بل أساسه اقرار القلب واذعانه وتسليمه .

ولهذا لم يعرف التاريخ شعباً مسلماً حاول اجبار أهل الذمة على الإسلام ، كما أقر بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم[1] .

* * *

ولا بد لنا من الإشارة إلى قضية هامة تغيب عن أذهان الكثيرين هنا في استراليا ... إن في استراليا الآن ما يزيد على مائتي ألف مسلم ... وإني اعترف ـ سلفاً ـ بأن الحكومة الاسترالية لا تتخذ موقفاً معادياً من الإسلام ، ولم تضيق على أحد من المسلمين بسبب هذا الإسلام . وأن الحرية مطلقة في ممارسة شعائر الإسلام .

ولكن .. ماذا بالنسبة للقوانين التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية في قضايا الزواج والطلاق ... ؟

وماذا أيضاً بالنسبة لأداء صلاة الجمعة التي يتحتم على المسلم أداؤها في المساجد والجماعات .. وثالثاً وأخيراً :

هل يسمح للمسلم بالانقطاع عن العمل أيام الأعياد . إن القوانين هنا لا تسمح بشيء من ذلك كله .. فالتقاضي أمام المحاكم يتم طبقاً لقوانين تخالف تماماً كل ما أمر به الإسلام . والمسلمون لا يستطيعون التوجه لصلاة الجمعة إلا في أوقات الراحة الخاصة بتناول طعام الغذاء .. ولا تعترف الدولة بأعيادهم الدينية كما نفعل ذلك بالنسبة لغيرهم من أتباع بقية الديانات ..

إن المسلمين فى استراليا مواطنون كغيرهم من النصارى واليهود .. فلماذا يحرم المسلمون وحدهم من هذه الحقوق المقررة للنصارى واليهود ... ؟

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د يوسف القرضاوي ص ١٦ - ٢٠ .

أما الإسلام فلم يقف مثل هذا الموقف من مخالفيه في العقيدة ... لقد كفل لليهود والنصارى الحرية المطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية . فلليهودى ان يذهب إلى «كنيسه» يوم السبت ، وللمسيحى أن يذهب إلى كنيسه يوم الأحد وللمسيحي أو اليهودي الحق في الانقطاع عن العمل يوم العيد كما ان لليهود والنصارى محاكمهم الخاصة فيما يتعلق بالزواج والطلاق ..

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها ان شاءوا والا لجأوا إلى القضاء الإسلامي .

يقول المؤرخ الغربي (آدم متز)[1] في كتابه عن «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» .

«ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم . والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية . وكان رؤساء المحاكم والروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل ـ إلى جانب ذلك ـ مسائل الميراث ـ وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به .

«على أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا . ولذلك ألف

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لادم متز ترجمة الدكتور أبي ريدة جـ ١ ، ص ٨٥ - ٨٧ .

الجاثليق (تيموتيوس) حوالي عام ٢٠٠ هـ ـ ٨٠٠ م ـ كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية (لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية) إلى أن يقول :

« وفي عام ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م ولي قضاء مصر خير بن نعيم . فكان يقضي في المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضي بين النصارى .. ثم خصص القضاة للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذي ولي قضاء مصر عام ١٧٧ هـ فكان أول من أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم .

ثم قال متز : « أما فى الأندلس ، فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضي الا في مسائل القتل » .

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجباً ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراماً ، ولا على اعتناق أمر دينى لا يرون اعتقاده . بمحض اختيارهم .

* * *

ان المساواة التي جاء بها الإسلام نابعة من صميم العقيدة الدينية التي يدين بها كل مسلم يؤمن بالله ورسوله .. فقد تعلم المسلمون من أصل دينهم أن الذي تعنو له الوجوه وتسجد في حضرته الأرواح والأجساد ، وتستجيب لندائه وحكمه العامة والخاصة هو قيوم

السماوات والأرض وحده . وأن الخلق قاطبة ينتظم في سلك العبودية المطلقة لله وحده .

وأن من حاول التطاول فوق هذه العبودية السارية في الأشخاص والأشياء وجب قمعه حتى يستكين في مكانته لا يعدوها .

« إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »[1] .

وخالق البشر زودهم بقوى مختلفة ومواهب شتى ليختبر كل امرئ منهم فيما آتاه وليسأله يوم العرض ماذا عمل به ؟ فليس صاحب السلطة فى هذه الدنيا رجلاً محظوظاً شاءت له الأقدار أن يتحكم وليس صاحب الثروة رجلاً شاءت له الأقدار أن يتمتع . لا . فكلا الرجلين مختبر فى وضعه . معرض للنجاح والفشل كأى انسان آخر مؤاخذ أو مثاب وفق استقامته أو عوجه . وعمله موضع الملاحظة الدقيقة من الله ومن الناس .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ثم إن المسلم في نظرته إلى الناس قويهم وضعيفهم يعرف أن زمام أمورهم في النهاية بين يدي الله وأن هذا الزمام لن يفلت منه أبداً ولن يستطيع أحد إسقاطه من بين يديه ومن ثم ... فهو متوجه برغبته ورهبته . وقلقه أو طمأنينته إلى الله وحده غير هياب لجبار عنيد ، أو مبال لذي بأس شديد قد وثق من قول الله له :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يمسسك بخير فهو

---

(١) سورة : مريم .

على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير» .

بهذا الروح المفعم باليقين والإباء . أبى الإنسان المسلم الاعتراف بأن لأحد من الخلق اختراق أسوار المساواة العامة ، والاستعلاء على غيره من الناس .

* * *

إن المساواة التي جاء بها الإسلام مساواة نابعة من جوهر العقيدة ومظاهرها المختلفة في العبادات والمعاملات والآداب ومكارم الأخلاق . فالصلاة تطبيق عملي لهذه المساواة التي تظهر في وقوف الناس خلف الإمام صفوفاً منتظمة لا عوج فيها ولا انحراف .. الكل يتحرك بتحركات الإمام وليس فى هذه الصفوف مكان للملوك ومكان للسوقة .كل انسان يقف فى المكان الذى يريده . وفى الصف الذى يسبق إليه .

والسجود الذي هو ركن من أركان الصلاة ، مثال آخر على تطبيق هذه المساواة في صورة رائعة من التضرع والخضوع لله ... هذه الجباه التي تسجد وتلاصق مواطئ الأقدام – وقد تلتقي بها أقدام المصلي أمامها ..

هل تقبل ذلك في غير الصلاة ؟

وهل تذل وتتعفر بتراب الأقدام إلاّ فى الصلاة ؟

هل أعفى الله من ذلك انساناً ولو كان حاكم الدنيا بأسرها ؟

هل استثنى من ذلك مخلوقاً لأنه عزيز كريم لا يطيق أن يضع جبهته عند مواطئ الأقدام ؟ كلا .. فالجميع في ذلك سواء ولا يقبل الله صلاة عبد ما لم يكن مخلصاً لله في ذله وانكساره . ما لم يكن

سعيداً قرير العين بوضع جبهته عند مواطئ الأقدام فى الصلاة. والذى تشمئز نفسه من ذلك لا يقبل الله عمله وإن صلى مئات الركعات.

ولعل هذا هو السر فيما قاله الرسول عليه السلام : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » نعم وهو ساجد بجبهته على الأرض بهذه الهيئة يناجي ربه وخالقه ويشعر نفسه بذلك وحاجته إليه ...

وفى الصلاة التى يظهر فيها المصلون صفاً واحداً لا ينظر الله فيها إلى المظاهر ولا إلى قيمة الإنسان المادية ومركزه في الحياة . وانما ينظر الله إلى الإنسان وما يحمل في قلبه من الاخلاص والصفاء من الأحقاد والأضغان والتجرد لله عن كل ما سواه .

وهنا تبدو المساواة أمام الله بصورة أخرى لا تتصل بالسلطان والمال والجاه، فرب أمير أو سلطان أو صاحب ملايين. يقف بجانب فقير ضعيف رث الثياب مغبر الوجه فيدعو هذا ويدعو ذاك فيتقبل الله من الفقير المغبر الوجه المخلص القلب ولا يتقبل من صاحب السلطان والثروة والجاه لانشغال قلبه بغير الله . إذا كان قلبه منشغلاً بغير الله .

وحين يفهم الغني والفقير هذا المعنى . يستشعر كل منهما روح المساواة الحقة أمام الله فيتلاقى الغنى مع الفقير فى وقفة خاشعة أمام الله تذوب فيها فوارق الجنس واللون والثروة والجاه.

هذا عن الصلاة التي جعلها الإسلام أول ركن من أركانه وأقواه ، بعد الشهادتين .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الصيام الذي فرضه الله.. هل اعفى منه الغني للترف وجعل بدله هبة من المال يدفعها للفقراء وذوي الحاجة والعيال ؟

هل فرض على الفقراء صيام اليوم وفرض على الأغنياء والسادة صيام نصف اليوم .. ؟

لا شيء من هذا كله . لقد فرض الصيام على كل مستطيع وجعل البدء والنهاية واحدة للجميع .

ثم تعال معي إلى الحج وفيه الدرس الأكبر للمساواة بين الناس أجمعين. لابد أن يتجرد الجميع من ملابسهم ، ثم يستروا أنفسهم بسترات متشابهة ، قد كشفوا رؤوسهم وخلعوا أحذيتهم ولبسوا أحذية متشابهة كذلك . ليس فيها مجال للأناقة ولا لمظهر الغني ويؤدون أعمال الحج جميعاً دون تفرقة .

هل تعرف الغني من الفقير .. ؟ هل تعرف الأمير من الحقير ؟ هل تعرف الملك من السوقة ؟ هل يحمل أحد نياشينه ليتميز على غيره في الشكل والمظهر ؟ وهذا هو الإسلام في عباداته التي كانت تأكيداً عملياً لما في عقيدته من الاخاء والمساواة بين جميع الناس .

ولما تولى أبو بكر الخلافة بعد رسول الله خطب الناس فقال :

أيها الناس ! أني وليت عليكم ولست بخيركم . فان أحسنت فتابعوني وأن أسأت فقوموني .

القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى أخذ الحق له . أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم . -

وجاء عمر من بعده فقال : لوددت لو أني واياكم في سفينة في لجة بحر تذهب بنا شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم

فان استقام اتبعوه وان جنف ـ مال عن الحق ـ قتلوه فقال طلحة :
وما عليك لو قلت : وان تعوج عزلوه ، فقال عمر : لا . القتل أنكل لمن بعده .
وكتب عمر لأبي موسى الأشعري واليه على الكوفة :
يا أبا موسى .. إنما أنت واحد من الناس، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً . ان من ولي أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده .. !
وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان عندما ضاق الناس ببعض تصرفاته :
إني أتوب وأنزع فأرجع عن خطئي ولا أعود لشيء عابه المسلمون . فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لأذلن ذل العبيد .. !
وقال عمر بن الخطاب يوماً : ما قولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية ؟ يعني أتكفي شهادته في اقامة الحد عليها ـ فقال له علي بن أبي طالب :
يأتي بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين ..
ان هذه الثورة الإسلامية الهائلة في سياسة الحكم هي التي أطلقت جيوش المسلمين من مكانها لهدم عروش الجبارين وإقرار مبدأ المساواة بين الناس .
ان أولئك المسلمين الأحرار عدّوا القياصرة والأباطرة أصناماً ورأوا اخلاصهم لكلمة التوحيد أن تتحول هذه الأصنام إلى انقاض .
فليس من توحيد الله أن يثني انسان صلبه ثم يهوى على الثرى

ليقبل نعل رجل تصفه الأساطير المبجلة بأنه امبراطور .. والغريب أن تلك الصور التي هدمها الإسلام من قرون لا تزال لها بقايا بين الناس حتى الآن ... ! !

* * *

« ... هذه هي مبادئ التسامح الديني في الإسلام الذي قامت عليه حضارتنا ، وهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعاً ، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام وأن لا يتعرض لأتباعهم بسوء ، وأن يكون معهم حسن المعاملة رقيق الجانب ، لين القول يحسن جوارهم ويقبل ضيافتهم ، ويصاهرهم حتى تختلط الأسرة ، وتمتزج الدماء ، وأوجب الإسلام على الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم وأن لا تتدخل في عقائدهم ولا تجور عليهم في حكم ، وتسويهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة ، وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير ، كان من أول ما عمله من شؤون الدولة ان أقام بينه وبينهم ميثاقاً تحترم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الأذى عنهم ، ويكونون مع المسلمين يداً واحدة على من يقصد المدينة بسوء . فطبق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادئ التسامح الديني في البذور الأولى للحضاره الإسلامية .

وكان للرسول جيران من أهل الكتاب ، فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا ويتقبل منهم هداياهم ، حتى ان امرأة يهودية دست

له السم في ذراع شاة أهدتها إليه لما كان من عادته أن يتقبل هديتها ويحسن جوارها . ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله في المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم ، وكان مما قاله يومئذ : انهم كانوا لأصحابنا مكرمين فأحب أن أكرمهم بنفسي .. !

وجاءه مرة وفد نصارى نجران فأنزلهم في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه فكانوا يصلون في جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم . استمع إليهم وجادلهم ، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق .

وعلى هدى الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الإنسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده . فإذا بنا نجد عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحاً يجيب سكانها المسيحيين إلى ما اشترطوه : من أن لا يساكنهم فيها يهودي .

لاحظوا ... أن المسيحيين هم الذين ضاقوا باليهود ! .

وتحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى ، فيأبى أن يصلي فيها كيلا يتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً .

ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت المساجد تجاور الكنائس ، وكان رجال الدين في الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم فى كل شؤونهم الدينية والكنسية . لا تتدخل الدولة فى ذلك ، بل أن الدولة كانت تتدخل في حل المشاكل الخلافية بين مذاهبهم وتنصف بعضهم من بعض . فقد كان الملكانيون يضطهدون أقباط

مصر في عهد الروم ويسلبونهم كنائسهم ، حتى إذا فتحت مصر رد المسلمون إلى الأقباط كنائسهم وأنصفوهم !

وتطاول الأقباط بعد ذلك على الملكانيين انتقاماً مما فعلوه بهم قبل الفتح العربي فشكوا بذلك إلى هارون الرشيد فأمر باسترداد الكنائس التي استولى عليها القبط بمصر وردها إلى الملكانيين بعد ان راجعه في ذلك بطريرك الملكانيين . !

« ... ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا ان كثيراً من الكنائس كان يصلي فيها[1] المسلمون والمسيحيون في وقت واحد ابان الفتح الإسلامي . فقد رأينا كيف سمح النبي لنصارى نجران أن يصلوا في مسجده بجانب المسلمين وهم يصلون صلاتهم . وفي كنيسة يوحنا الكبرى في دمشق التي أصبحت الجامع الأموي فيما بعد ، رضي المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضي المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم ، فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين : هؤلاء يتجهون إلى القبلة ، وأولئك يتجهون إلى الشرق . وانه لمظهر عجيب فريد فى التاريخ له مغزى عميق فى الدلالة على التسامح الدينى الذى بلغته حضارتنا ! .

ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه ، وبذلك كان الاطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء . وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمناً طويلاً .

---

(١) من روائع حضارتنا ـ للمرحوم الدكتور الشيخ مصطفى السباعي فصل : التسامح الديني .

كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص . وكان « سرجون » كاتبه وقد عين مروان « اثناسيوس » مع آخر اسمه اسحاق في بعض مناصب الحكومة في مصر ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة . وكان عظيم الثراء واسع الجاه ، حتى ملك أربعة آلاف عبد وكثيراً من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة ، وقد شيد كنيسة في « الرها » من إيجار اربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته ان وكل اليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد وهو والد عمر بن عبد العزيز .

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع وكان مقرباً من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده ، يحرص على راحته وسروره . حتى . كان لجرجيس زوجة عجوز . فأرسل إليه المنصور ثلاث جوار حسان فرفض قبولهن قائلاً : إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت في الحياة ، فسر منه المنصور وازداد له اكراماً ، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة (أي دار الضيافة) ، وخرج إليه ماشياً يسأل عن حاله ، فاستأذنه الطبيب في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه . فعرض عليه المنصور أن يسلم ليدخل الجنة فأبى وقال : رضيت أن أكون مع آبائى فى جنة أو نار . فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار . !

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيب المعتصم ، ولما مات جزع

عليه المعتصم جزعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته .

وكان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه . حتى انه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة .

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على الديانات والمذاهب كلها ، وكان يقول لهم : ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني ، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية .

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية . قال خلف بن المثني : لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني) ، والحميري الشاعر (وهو شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صفري) ، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن) وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي) . وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي) وابن نظير المتكلم (وهو نصراني) ، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي) وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي) ، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم .

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها . فمنذ العهد الأموي كانت للنصارى احتفالاتهم

العامة فى الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية .
وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الإسكندرية فى احتفال رائع وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل ، والكهنة يصيحون : قد أرسل الرب إلينا الراعي المأمون الذي هو مرقس الجديد . وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك .

ويذكر لنا المقريزي في خططه أن الناس ـ في عهد الإخشيديين ـ كانوا يحتفلون بعيد الغطاس احتفالاً كبيراً ، ففي عام ٣٣٠ هـ جرى الاحتفال بعيد الغطاس احتفالاً رائعاً وجلس محمد بن طغج الإخشيدي بقصره المختار في جزيرة المنيل ، وقد أسرج حوله ألف قنديل ، وجاراه الشعب فأوقد المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على سطح الدور وشواطئ النهر ، ولبس الجميع أحسن ما عندهم من الثياب وأبهجها ، وأخرجوا الكثير من المآكل والمشرب ووضعوهما في أوان من الفضة والذهب ، وكانت ليلة لم تغلق فيها الدروب ، وغطس معظم الناس اعتقاداً منهم ان الاستحمام ليلة الغطاس أمان من المرض وابراء من الداء .

يقول المستر « درابر » الأمريكي المشهور : ان المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام . بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة ، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن

ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر (ولز) في صدد بحثه عن تعاليم الإسلام :

« انها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وانها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها انسانية السمة ، ممكنة التنفيذ ، فانها خلقت جماعة انسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها ... » إلى أن يقول عن الإسلام : «إنه مليئ بروح الرفق والسماحة والأخوة» .

ويقول السر « مارك سايس » في وصف الامبراطورية الإسلامية فى عهد الرشيد : «وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة» .

ويقول (ترزن) : « لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين » .

ويقول (ليفي بروفنسال) في كتابه أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر : « ان كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً . وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الادارية والحربية ، ومن اليهود من كان ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية » .

ويقول « رينو» في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط : « ان المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختتنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير »[1] .

(١) من روائع حضارتنا : للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي ص ٩٢/٨٣ .

وبعد ...

فان كل كلمة قلتها هنا موثقة في مصادرها الإسلامية الصحيحة .. لم أحاول الهروب باصطناع أحكام زائفة . أو ادعاء أقوال باطلة .. يمكنكم الذهاب إلى مكتبة الجامعة ... هناك توجد أكثر هـذه المراجع ... فارجعوا إليها ان شئتـم .. ولكن حذار من كتب الاستشراق .. إن أكثر المستشرقين لم يكتبوا لخدمة الحقيقة .. حتى المخلصون منهم لم يسلموا من ارتكاب أخطاء جسيمة .

هذا هو الإسلام .. فاعرفوه كما سمعتم .. إن من معاني الإسلام الانقياد والخضوع لأمر الله فى أى حكم.. ومعنى ذلك: أن أى مسلم ليس حراً في الالتزام بهذه المبادئ أو رفض هذه المبادئ .. إنها ليست ترفاً أخلاقياً .. أو أسلوباً حضارياً إنها فرائض إلهية لا بد أن تلتزم ، وأحكام سماوية لا بد ان تراعى وتنفذ .

* * *

« ولكن ماذا عن أبي حنيفة ؟ نريد أن نعرف الحقيقة .. وهل يبيح بيع اليهودي أو المسيحي في حال الضرورة والحاجة[٢] ... ؟ !

قلت للآنسة «ليليان» والآنسة «آن» :

– لقد أجبت عن كل هذه الأسئلة سلفاً ... !

– لم نسمع هذه الاجابة . ولم تشر إلى هذه القصة ..

وخيم الصمت مرة ثانية .. والتزم الجميع الهدوء في انتظار اجابتي عن هذه الأسئلة .

قلت للآنسة آن والآنسة ليليان :

---

(٢) لقد ورد هذا الافتراء في كتاب المحامي الصليبي الفاشل .

ـ ان كل ما نطقت به ... وكل ما أشرت إليه كل هذا الذي قلته . وكل هذا الذي شرحته هو من كلام أبي حنيفة . وأقوال أبي حنيفة ... !

ـ ماذا تقول : ... ؟ أبو حنيفة قال هذا ... ؟

ـ نعم : قال هذا أبو حنيفة . وكتب هذا أبو حنيفة ... وحين تراجعون كتبه الموجودة في مكتبة الجامعة ، وتقارنونها بما كتب « يهوذا » في هذه الصحيفة ستتضح لكم في النهاية جريمة تزوير وقحة قبيحة ... :

ان الإمام أبا حنيفة يعرف بين المسلمين باسم الإمام الأعظم . الأعظم فكراً ... والأعظم سماحة ورأياً ...

لقد كان من جيرانه حيث يسكن رجل غير مسلم عرف بالعربدة والسكر. لم يكن أبو حنيفة ينام أكثر الليل ساهرًا يقرأ ويتعبد . أما جاره هذا فكان يقضي أكثر ليله في الشراب واثارة الضجيج والصخب ..

تصوروا .. رجلين فى مكان واحد .. أحدهما امام جليل ذو شأن والآخر صعلوك تافه لا ينقطع عن اثارة الضجيج وشرب الخمر .

ان القانون لا يسمح بهذا العبث . وهنا فى أستراليا تجرم القوانين مثل هذا التصرف . لقد قرأت فى نصوص تأجير عقد المسكن الذى أقيم فيه الآن فى ضاحية « أشفيلد » نصا يحذرنى من استخدام أجهزة الراديو والتليفزيون استخداما يؤذى الغير .. ونصا آخر يحذرنى من تشغيل ماكينة الغسيل فى ساعة معينة من الليل .. ان حرية أصبعك كما يقول « فولتير » تنتهى عند عين غيرك .. !

ان الحرية المطلقة هى عين الفوضى .. بل هى «الهمجية» التى لا يقبل بها أحد أبدا .

وقد صبر أبو حنيفة على هذا الجار . لقد كان من اليسير أن يسكته بإشارة .. أو يحول منزله إلى جهة أخرى من المدينة .. ولكن أبـا حنيفة إمام مسلم . ويعي جيداً ما أوصى به الرسول كل مسلم . وقد أوصى الرسول بإكرام الجار حتى وان كان هذا الجار غير مسلم .

وذات ليلة .. افتقد أبو حنيفة صوت جاره . ولم يسمع ضجيجاً أو صخباً في بيته ... لقد تعود الإمام على صخب جاره ، وراض نفسه على احتمال أذاه واساءته . وبإحساس المسلم ، وبعاطفـة «الإمام» الذي لا يفرق بين مسلم وغير مسلم . غادر أبو حنيفة بيته . ترك ما فى يده من كتب . وقطع عبادته وخرج .. فعل ذلك كله ليطمئن على جاره .. فمن يدري ؟ لعله أصيب بمرض . أو نزلت به كارثة تحول بينه وبين الغناء والطرب ... !

وهنا جاءه الخبر .. لقد تبين أنه قبض عليه بتهمة العربدة . وأنه سيق إلى مقر الشرطةلاتخاذ الاجراءات ضده .

وهنا كانت المفاجأة ...

لقد قال الإمام لقائد الشرطة :

– كيف تسجنون جار أبي حنيفة .. ؟

– وهل حدث هذا يا مولانا ... ؟

– نعم حدث ...

– نحن لم نقبض إلا على رجل بتهمة العربدة والسكر وهو غير مسلم ..

– هذا هو جاري الذي جئت من أجله ..

وهنا نادى قائد الشرطة أعوانه ثم أمر باطلاق سراح جار أبي حنيفة ، واطلاق سراح كل من قبض عليهم في هذا اليوم اكراماً لأبي حنيفة ... !

وما كاد الرجل يرى أبا حنيفة حتى سقط مغشياً عليه . ثم أفاق بعد ذلك ليقبل رأس الشيخ ويتوب على يديه ...

* * *

مستر كلارك ومستر طومسون :

ـ انها قصة رائعة لفيلم رائع .. ؟ !

ـ إن الحوار لم ينته بعد .. فلا تزال الآنسة فيفيان مثقلة بالأسئلة التي تنتظر الجواب والرد . فهل توافقون على الحضور غداً أم بعد غد ... ؟

ـ بعد غد .. يوم السبت ...

ـ نلتقي بمشيئة الله بعد غد ...



الحلقة الثانية من الحوار

- قراءة في الكتاب الأسود ..
- مصر وشعبها في قفص الاتهام ..
- قتل غير المسلمين ! !
- الإحصاء العام بين الحقيقة والتزييف ..
- الاضطهاد المزعوم .. لمن .. ؟
- تناقض .. وتخبط ..
- كيف دخل الإسلام إلى مصر .. ؟
- أصل المسلمين .. !
- الإسلام .. وهل اعتنقه المصريون عن اقتناع ؟ أم فرض عليهم بالضغط والإكراه ؟
- حقيقة الجزية .. !
- كلنا أقباط .. مسلمون وغير مسلمين !
- صوت من مصر ...
- نموذج من الحبشة ... !
- هذا الغضب الحقود .. لماذا ؟

صدق ... أو ... لا تصدق .

ولكن هذا الذي ترفض تصديقه . وتنكر أذناك صوته ، ستراه بعينك وتسمعه بأذنك .. وتعيش فيه إن قدر لك أن تهاجر أو تسافر إلى بلد مثل استراليا .. أو كندا أو أميركا .. أو حتى جمهورية كوستاريكا . !

قد يقرأ هذه الصفحات قارئ غير مسلم ... وقد يكون هذا القارئ مسيحياً مصرياً .. أو لبنانياً .. يونانياً .. أو ايطالياً .

ان « ذرة » واحدة من الانصاف عند أي قارئ من هذه الجنسيات جميعاً ستجعله يضحك .. هذا ان كان مهذباً رقيقاً ... !

وقد تصدر عنه حركة لا شعورية يلعن بها الظروف التي جمعت بينه وبين « بعض » هؤلاء الناس جميعاً . !

هذا « البعض » الذي يعيث فساداً في أرض المهجر .. ويسيء إلى الدين . والوطن . لمجرد الاساءة ، وشهوة الجنون والمغامرة ...

هذا البعض موجود هناك .. وراء البحار ... في شمال الأطلنطي أو جنوب المحيط الباسفيكي . في مدن مثل « سيدني » ـ « وملبورن » في « استراليا » أو « واشنطن ونيويورك » في أميركا . أو « كويبك »

« وأوتاوا » في كندا أو « لندن » وجلاسجو في بريطانيا ...

لم أصدق ما أرى ـ كما لم أصدق من قبل ما قرأت ..

كنت أتابع ما ينشر خارج أرض الوطن عن طبيعة الحياة بين أبناء هذا الوطن .. كانت تصلني من حين لآخر بعض الصحف ... وكنت استمع من حين لآخر إلى بعض الاذاعات . وكثيراً ما كانت تصلني خطابات خاصة وقد شحنت بالأكاذيب والافتراءات عن المعاملة الهمجية التي يعامل بها المسيحيون من الأقباط .. !

لاحظ أنني قلت : المسيحيون من الأقباط .. فلهذا التعبير أهمية كبرى ستنكشف .. وحقيقة تاريخية ستوضح ونشرح ..

* * *

عن أي شيء كان يتكلم هذا البعض ؟ وإلى من .. من الناس كانوا يوجهون حملات التشكيك والحقد ... ؟

واسمح لي أيها القارئ أن أضع نفسي في مواجهة هذا الصنف ...

لا أقول هذا ادعاء لفخر ، أو طلبًا لوجاهة مزيفة أتفوق بها على الغير ... بل أفعل ذلك انطلاقاً من ايمان راسخ .. وعاطفة مصرية أصيلة ..

ثم .. لأني تعلمت في الأزهر .. وأكملت دراستي في الخارج .. ودرست أكثر الديانات والمذاهب . ولي في ذلك تجارب سابقة مع كل الناس ...

لقد قلت في رسالتي إلى البابا بولس السادس[1] .. في أعقاب

---

(١) رسالة إلى البابا بولس السادس ... من نشر دار الأنصار ـ بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

الحوار الإسلامي المسيحي الذي دار بين كرادلة الفاتيكان وعلماء الأزهر :

« ... لقد نشأت في قرية من قرى مصر الطيبة في أعماق هذا الريف المعطر بالاخاء والوفاء والمحبة .. وقد تفتحت عيناى على صورة من صور هذا الاخاء والمحبة لا تزال عالقة بذهني حتى هذه اللحظة .. لقد تركت هذه القرية منذ سنوات بعيدة .. ورحل عن الدنيا أكثر الرجال الذين عرفتهم في هذه الفترة .. غير أني لم أزل أذكر هذه العلاقات الحميمة التي نشأت بين والدي وأصدقائه من نصارى هذه القرية .. وكيف كانوا يثقون في والدى المسلم أكثر من اخوانهم في الدين والملة ..

كان «حنا» و«جبران» و«بانوب» شركاء معه فى التجارة، وكان « أيوب » وأخوه « ميخائيل » من أخلص مساعديه في عمله .. وكنت في طفولتي لا أهنأ بطعام لا يشاركني فيه « بشرى » زميلي في «كتاب القرية » وابن « حنا الصراف » الذي كان لا يفارق والدي أكثر ساعات اليوم والليلة .

لقد رحلوا جميعاً عن الدنيا .. ولم يبق من هذه الصحبة القديمة . إلا المعلم « بانوب » تاجر القطن الشهير في القرية . والذي بلغ من العمر تسعين سنة ..

وأذكر .. أنني حين تركت هذه القرية إلى القاهرة في أولى مراحل دراستي الدينية بالجامعة الأزهرية ... كثيراً ما كنت ألتقي بالقسوس والكهنة من رجال الكنيسة القبطية .. لم أكن أشعر مطلقاً تجاه هؤلاء القسوس والكهنة بأي لون من مشاعر البغض والكراهية .. كنا نتكلم

دائماً في مسائل وطنية وانسانية .. ثم تتسع هذه المناقشات لتشمل شؤون عائلاتنا الخاصة . وما يجب عمله لتعميق معنى الاخاء والمحبة بين عنصري الأمة المصرية .

ولأول مرة في حياتي بدأت اقرأ انجيل « متى » و « مرقص » و « يوحنا » و « لوقا » .. لم أكن أشعر بأية غضاضة أن احتفظ فى مكتبى بأناجيل المسيحية إلى جوار القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس .. ولا تزال مكتبتي حتى هذا اليوم تضم نسخة من هذه الأناجيل موقعاً عليها من الأب جبران الكاثوليكي العقيدة والمذهب .

وفي أوائل الخمسينات حين كنت طالباً في كلية أصول الدين . وكان مبنى هذه الكلية مُلْحَقًا بمسجد الخازندار بحى شبرا . ذهبت ومعي عشرون طالباً إلى كنيسة القديسة « تريزا » التي تبعد قليلاً عن الكلية والمسجد .

لقد فوجئ الكهنة والرهبان بهذه الزيارة وبدت على وجوههم الدهشة من هذه المفاجأة .. وارتسمت علامة استفهام كبيره شملت المكان كله من المذبح إلى برج الكنيسة . ؟ !

غير أني شرحت لهم قصة قدومنا ببساطة ..

قلت لهم : إنكم جيراننا ، وللجار حقوق مقدسة ، ثم انكم ضيوف في بلدنا .. وللضيوف حقوق مؤكدة . فوق هذا كله فنحن جميعاً رعية الله وكلانا يدعو إلى ملكوته حسب ايمانه ومعتقده ..

لقد جئنا إلى هنا لنعلن حقيقة يجهلها أكثر الناس عن « نبي الإسلام » فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يستقبل النصارى في مسجده ويترك لهم حرية العبادة فيه . فكانوا يصلون صلاتهم

في جانب منه ، ورسول الله وأصحابه يصلون في جانب آخر ، فأي غضاضة أن نحضر إليكم . أو تجيئوا إلينا ؟ فإذا كان الله « محبة » كما يقول المسيحيون ..

فان هذه « المحبة » في نظر المسلمين هي أعلى درجات الايمان والتقوى ..

لقد مضى على هذا اللقاء يا قداسة البابا أكثر من ثلاثين عاماً ربما كان ذلك في عهد سلفك البابا بيوس الثاني عشر على ما أذكر .

لم تكن دعوات التقارب بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود قد ظهرت .. ولم تكن دعوات التفاهم بين كنيسة روما وغيرها من كنائس المسيحية قد عرفت .. ولم تكن فكرة عقد مؤتمرات .. بين الإسلام والمسيحية قد ذاعت واشتهرت .. ذلك لأن هذا التقارب أو التفاهم بين المسلمين والنصارى مقرر سلفاً في شريعتنا ، ومودة المسلمين للنصارى من السمات البارزة في عقيدتنا وحضارتنا .

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى .. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » .

صحيح أن هذه الاية نزلت في قوم من النصارى أسلموا ..

وهم الذين تعنيهم كلمة « منهم » في الآية الكريمة . ولكن يبقى الحكم العام ـ بعد ذلك ـ وهو تأكيد مودة النصارى للمسلمين . ومودة المسلمين للنصارى .

وهناك صورة أخرى لتأكيد هذه المودة بين المسلمين والنصارى وردت في سورة « الروم » ، حين وقعت الحرب بين دولة الفرس ، ودولة الرومان .

لقد انهزم الروم فى الواقعة الأولى بينهم وبين الفرس . وفرح مشركو مكة الذين كانوا يحاربون النبى محمدًا ويناصبونه العداء لهذا الانتصار لأن الفرس من وجهة نظرهم قوم لا يؤمنون بكتاب سماوى وقد انتصروا على الروم الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية .. ومعنى هذا . أنهم سينتصرون فى حربهم على محمد كما انتصر الفرس على الروم . وقد حزن المسلمون لذلك أشد الحزن ودعوا الله أن ينصر «الروم» أى النصارى على الفرس .

وجاء الجواب من السماء مؤكداً قدوم ذلك النصر :

« غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وكانت بشارة من الله للمسلمين بالنصر . وللروم بالانتصار على الفرس ..

* * *

بل حدث قبل ذلك بسنوات أن ذهبت إلى جار مسيحي أهنئه « بعيد الفصح » وكنت في هذه الفترة أعمل رئيساً للسكرتارية الفنية بمكتب شيخ الأزهر ..

حدث .. ان جاء راعي الكنيسة إلى هذا الجار يهنئه بهذه المناسبة .. لم يكن هذا القسيس يعرفني – فقد التقينا معاً في مناسبة واحدة لآداء واجب .. وإن اختلفت أسباب هذا اللقاء والمجيْ بالنسبة للشيخ .. والراهب .. !

لقد بدأ القسيس كلامه :

– أنت لم تحضر إلى الكنيسة منذ ثلاثة آحاد يا « حنا » ؟

– كنت مريضاً ...

– ولماذا لم تخبرنا ... ؟

– البركة في جيراننا .

ـ المسلمون ... ؟

ـ نعم يا أبانا ... ؟

وقبل أن يتطور الحوار إلى أبعد ... ويفسر انقطاع « حنا » عن الكنيسة بأسباب تتصل بالعقيدة والمذهب ... !!!

تكلمت إلى « حنا » مستشهدًا بأقوال الرسل ... ووصايا الحواريين ... وضرورة حضور « قداس الأحد » .

.. و ... لم يتركني الأب ميخائيل أكمل .. لقد انجذب نحوى بشدة .. وصافحني بحرارة .. ثم قال وهو يضغط على يدى بقوة :

ـ انك ابن مبارك .. لماذا لا أراك فى الكنيسة ؟ .. !!

ـ حاسب يا أبانا .. لقد نسيت أن أعرفك بجاري .. انه فلان سكرتير شيخ الأزهر ... !!!

* * *

لم يحدث في التاريخ مثل هذا التعاطف بين طائفتين مختلفتين مذهبًا وعقيدة ، بل لم يحدث مثل ذلك بين الطوائف المسيحية المختلفة ، ولماذا أذهب بعيدًا ..

وحروب الكراهية والعار لا تزال دائرة حتى هذا اليوم في « ألستر » وسباق القتل بين البروتستانت والكاثوليك في « بلفاست » لم يهدأ ولم يفتر ... ؟

كنت أفكر في هذا كله اثناء ركوبي القطار من أشفيلد Ashfield في طريقي إلى شارع الكومونولث Common Wealth St. حيث كان اللقاء الثاني مع طلبة وطالبات كلية الحقوق ـ يوم السبت . لقد سبقوني هذه المرة إلى المسجد . ووجدتهم جميعاً يقرؤون في الكتاب الأسود ... !!!

وبصوت مرتفع ... بين صمت مطبق ... بدأت الآنسة فيفيان تقرأ . وتعيد ما تقرأ ...

« ... ان الحكومة المصرية ـ تطبيقاً لأحكام دين الدولة الرسمي ـ ترتكب في حق الأقباط الكثير الذي نجتزئ منه ما يأتي :

أ - فهي تحرمهم حق الحياة ... !

ب - وهي ـ أي الحكومة المصرية ـ تغير الحقيقة في تعدادهم ... !

جـ - وتحرم المسيحيين حقهم في المساواة مع المسلمين في نشر واذاعة عقيدتهم ... !

د - وهي تؤثر المسلمين بالعطلات الرسمية في المواسم والأعياد الدينية بينما يحرم المسيحيون من هذه العطلات أيام أعيادهم !

هـ - وتهاجم المسيحية من الكتاب والمؤلفين والمذيعين ـ دون اعطاء فرصة للمسيحيين للرد على ما يثار ضد عقيدتهم .. !

ز - وتفرض الحكومة على الأحزاب تبني الدعوة والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية التي تهدد المسيحيين في عقيدتهم وحياتهم ... !

ح - وتحرم الحكومة الأقباط من الفرص المتكافئة في الكليات الممتازة ..

وفي كلية البوليس والحربية ، وفي البعثات التعليمية ، وفي السلك الدبلوماسي ... وفي الوظائف الرئاسية ... الخ . الخ .

وقد أنشئت الجامعة الأزهرية .. وما فتئت تنمو وتتفرع . وتتيح الفرص لمئات الألوف من الطلبة المسلمين .. ليس بينهم قبطي واحد .. !

وتفرض ـ أي الحكومة ـ تعليم الدين الإسلامي في جميع الكليات والمعاهد .. كمادة أساسية .. للمسلم والمسيحي ـ فمن أهمل من المسيحيين هذه المادة .. ولم يذاكرها مذاكرة جيدة .. رسب في الامتحان . ولم ينقل إلى صف أعلى ...

كما أن الحكومة المصرية لا تسمح لأي مصري بالتعاقد مع أية حكومة أخرى الا إذا كان حافظاً للقرآن . أي مسلماً » .

(انتهى ... من الكتاب الأسود : ٩ - ١١)

* * *

مستر كلارك :

ـ أعتقد أن أكثر هذه الأسئلة قد سبقت الاجابة عليها في لقائنا السابق ... اللهم إلا إذا كانت الحكومة المصرية تعامل رعاياها خلافاً لما قلت .. وخلافاً لما شرعه الإسلام في معاملة غير المسلمين ـ في بلد عريق ـ كمصر . ؟

ـ شكراً للمستر كلارك ـ لقد قررت الحقيقة التي لا يختلف عليها أحد من الحكام ـ والحكومة في مصر .. وأظن أنكم سمعتم بهذا الخطاب الذي ألقاه رئيس الجمهورية حول هذه القضية بالضبط [1] .. ؟

ـ لقد قرأنا ملخصاً لهذا الخطاب في سيدني مورننج هيرالد .. وهو نفس ما سمعناه هنا قبل هذا اليوم .. واختصاراً للوقت .. فاننا نفضل حصر نقاط الحوار فى الأمور التي لا تزال قيدًا للشك. وتحتاج إلى مزيد من الإيضاح والشرح . مثلاً .

(١) سنة ١٩٨٠ .

كيف دخل الإسلام إلى مصر ؟ وما أصل المسلمين المصريين ..
هل وفدوا مع الموجات الأولى للفتح .. أم هم مصريون في الأصل ؟
وهل اعتنق هؤلاء الإسلام عن اقتناع وفهم . ؟

أم فرض عليهم ذلك بالإكراه والضغط ؟ وما حقيقة عدد المسيحيين في مصر ؟

وهل يمنحون نفس الفرص في الجامعات ومعاهد العلم ؟

وهل تفرض عليهم دراسة الدين الإسلامي كمادة أساسية يتوقف عليها نجاح الطالب ؟

ولا يسمح لأحد منهم بالسفر إلى الخارج ؟

ـ شكراً للآنسة ماري والسيدةروث . وسأحاول الالتزام بما ذكرتماه بالضبط .. غير أني سأتجاوز هذاالالتزام في بعض النقاط إذا سمح الوقت . وكانت هناك فرصة لمزيد من الايضاح والشرح ..

* * *

لم يكن دخول مصر في الإسلام ، أو فتح العرب لمصر أمراً مستغرباً من وجهة نظر الدارسين والباحثين عن الأسباب والخفايا وراء هذا الفتح .

إن مصر لم تكن بعيدة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن منذ قديم الزمان . كانت هناك دائماً تلك العلاقات والصلات التي لم تنقطع ، وقد لعبت الهجرات المتتابعة دوراً كبيراً في دعم هذه العلاقات وتنمية هذه الصلات ، وفي فتح نوافذ التقارب بين هذه البلدان عبر مراحل متقدمة فى التاريخ ، وقبل أن يظهر الإسلام بعشرات القرون وقبل أن تدوي كلمة التوحيد في مكة على لسان سيدنا محمد رسول الله .

وقد ذكر المؤرخ اليوناني (شرابون) « المتوفى سنة ٢٥ م ، والذي زار مدينة « قفط » قبل مولد المسيح بفترة فقال : إنها مدينة نصف عربية . !

كما يحدثنا « الكندي » في تاريخه فيقول في « كتاب الولاة وكتاب القضاة » :

إن جماعة من العرب منهم المغيرة بن شعبة ، وعثمان بن عفان زاروا مصر للتجارة أيام الجاهلية .

وهناك قصة طريفة ذكرها ابن عبد الحكيم عن السبب الذي جعل ابن العاص مولعًا بفتح مصر فقال :

ان عمرو بن العاص زار مصر فى عهد الجاهلية بدعوة من أحد رجال الدين المسيحيين الذى التقى به أى بعمرو بن العاص فى مدينة القدس وتعرف عليه بعد خدمات جليلة قدمها عمرو إلى هذا الرجل فأخذه الرجل معه إلى مصر ، ثم سافر به إلى الإسكندرية وشهد فيها عمرو عيدًا عظيمًا من أعيادها يجتمع فيه ملوكهم وكبراؤهم ولهم « كرة » من ذهب يترامى بها ملوكهم ، ويتلقونها بأكمامهم ، وكان فى اعتقادهم أن من وقعت الكرة فى كمه لم يمت حتى يملكهم ، فلما جلس عمرو بن العاص مع الناس فى هذا المجلس أقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ـ ..!!

* * *

واضح من هذه المقدمة أنه كانت هناك علاقات قديمة وروابط وثيقة بين الشعب المصري وبين العرب . بل أكد بعض المؤرخين ـ من غير المسلمين ـ أن أصل الشعب المصري من العرب الذين وفدوا إلى مصر في موجات متتالية ـ وفي عصور سحيقة متقدمة .

من هؤلاء المؤرخين « بريستو» الذي ذكر في كتابه : « تاريخ

مصر من أقدم العصور...» : أنه من الثابت أن هذه الهجرات ـ من العرب ـ قد تكررت مراراً ... و... وإذا كان من الصعب معرفة الطريق التى سلكوها ... فإن الأقرب إلى الذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الإسلام[١] ...

ومن ذلك أيضاً ما قاله « ماسبيرو» المؤرخ الفرنسي الشهير . الذي أكد أن بين المصريين القدماء والعرب روابط تشد بعضها إلى بعض . وليس المصريون القدماء سوى ساميين انفصلوا من عهد الساميين قبل غيرهم[٢] ...

وفي كتاب « مصر والحياة المصرية القديمة » يقول المؤلفان : أرمان وهرمان رانكن :

« ان تشابه الحوادث في العصر التاريخي يسوغ القول بأن أجناس البدو الذين عاشوا في البلاد المتاخمة لمصر في بلاد العرب قد انحدروا إلى وادى النيل الخصيب فى عصور ما قبل التاريخ[٣] » ..

... انها حقيقة تاريخية كان ولا بد من الاشارة إليها .. اشارة نستأنس بها على الأقل في معرض هذا الحوار وفي تجلية وجه الحقيقة الذي طمرته الأتربة والأحجار ...

* * *

لقد كان فتح مصر ضرورياً بعد أن استتب الأمر للمسلمين في بلاد الشام « سوريا وفلسطين » في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولأسباب بعيدة كل البعدعن تلك الأسباب التي

---

(١) عروبة مصر في التاريخ ـ محمد عزة دروزة ـ ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

تحمل الغزاة والفاتحين عادة على الغزو أو الفتح. إنه جانب روحى يحمل في ثناياه معنى القداسة والاعزاز لهذا البلد الكريم الذي اسمه « مصر » .

فقد ذكر الكندي وغيره من المؤرخين أن الله ذكر مصر في كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعًا ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير .

أما ما ورد في حقها من الأحاديث النبوية فقد روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال :

« ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحما » .

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى شرحه لهذا الحديث ما نصه :

المراد بالرحم أنهم أخوال اسماعيل بن سيدنا ابراهيم الخليل عليهما السلام فقد كانت أمه أي أم اسماعيل« (هاجر) » مصرية وهو أي اسماعيل « والد » عرب الحجاز الذين منهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم ـ أى المصريون ـ أخوال إبراهيم ابن رسول الله لأن أمه « مارية » كانت مصرية أهداها المقوقس حاكم مصر حين بعث برده على رسالة النبي .

وقال صلى الله عليه وسلم : في ذكر فضائل مصر :

إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا ، فذلك خير أجناد الأرض ، فقال له أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : ولم ذلك يا رسول الله ؟ فقال :

لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة ..

فإذا كان لمصر هذه القداسة في كتاب الله الكريم ، وكانت لها

هذه المنزلة في قلب النبي الرحيم ، وكان أجنادها هم خير أجناد الأرض كما صور ذلك الرسول في حديثه الشريف .

فان فتح مصر في هذه الحالة يصبح تجسيداً «عاطفياً» لتلك الروابط الروحية الباهرة .. وتأكيداً لتلك العواطف التاريخية القديمة .

أضف إلى ذلك تلك الرسالة التي بعث بها النبي إلى المقوقس يدعوه فيها إلى الدخول فى الإسلام وما نسب إلى بعض حكماء العرب من أن مصر هي شبه الجنة في هذه الأرض وأن سلطان مصر سلطان الأرض كلها في الشرق والغرب .

لقد كانت هناك جملة كبيرة من البواعث وراء هذا الفتح .. كان هناك هذا الباعث «الروحى» الذى توجبه العقيدة ، وكان هناك هذا الباعث «الدفاعى» لما بين الشام ومصر من صلة قديمة ، وكان هناك هذا الباعث «النفسى» الذى يجعل من مصر جنة من جنان الدنيا ، وشبهًا قريبًا لما يروى عن الفردوس الأعلى ؟

ولكن . هل كان كل ذلك كافياً للإقدام والفتح .. ؟

بالطبع لا .. فقد كان ثمت عامل آخر من أهم العوامل التي هيأت الظروف لهذا الفتح ، وفتحت قلوب المصريين أمام المسلمين الذين قدموا يحملون راية الاخاء والتسامح والعدل .

كانت مصر قبل قدوم العرب ولاية بيزنطية ، ولم تكن نظرة الأباطرة البيزنطيين إلى الشعب المصري أكثر من نظرة السيد إلى العبد ، ولم تكن العلاقة بين الحاكم والشعب تتجاوز تلك العلاقة الكئيبة بين الأجير المكدود والمالك المستبد .

كانت مصر في نظر هؤلاء الحكام مزرعة لانتاج القمح ، وبقرة حلوباً تمد هؤلاء الطغاة باللبن واللحم .

وقد عومل الشعب المصري بوجه عام معاملة المغلوب على أمره: لم يكن له رأي في الحكم ، ولا أثر لوجوده في السلطة أو الجيش ، ولم تكن لغته معترفاً بها في التخاطب أو التعامل ، ولم يكن لمشاعره صدى في قلوب هؤلاء المتعالين عليه بالظلم والباطل .

وكانت في مصر مشكلة أخرى من كبريات المشاكل . فالاضطهاد الديني بلغ أشده واكراه الناس على اتباع مذهب « (الحاكم) » بلغ غايته فقد حاولت كنيسة الإسكندرية رفض «تفسير بيزنطة» لطبيعة المسيح وحقيقته .

وحين قاوم المصريون هذا الاجراء المتسم بالجبروت والظلم تعرضوا لحملة واسعة من الاضطهاد والتشريد والقتل .

وقد قابل المصريون الاضطهاد الاقتصادي والديني بالمقاومة الايجابية أحياناً ولكن الغالبية من الشعب المصري لجأت إلى المقاومة السلبية ، وذلك بالفرار إلى المعابد والأديرة ، وبترك مزارعهم وقراهم إلى الصحاري الجرداء المقفرة ، مما أدى إلى انتشار الفوضى واختلال موازين الأمن ، وتطلع الشعب المصري للخلاص من الطغيان والظلم .

وفي ذلك يقول السيرتوماس أرنولد في وصف الحال الذي كان عليه المسيحيون في مصر :

كان بعضهم[1] يعذب ثم يلقى بهم فى اليم ، وتبع كثير منهم

(١) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٣ .

«بطريكهم» إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية . بل قيل إن جستنيان أمر بقتل مائة ألف قبطي في مدينة الاسكندرية وان اضطهادات خلفائه قد حملت الكثير على الفرار إلى الصحراء .

* وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط ، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان . وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية وكفل لهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنوا من عبثه الثقيل في ظل الحكم الروماني . ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب .

وفي هذا يقول البطريرك ميخائيل الأكبر بطريرك انطاكية :

« وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت لما رأى الروم نهبوا كنائسنا ، وسلبوا ديارنا في غير رحمة أرسل أبناء اسماعيل « أي العرب » ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم » .

وقد ذكر معظم المؤرخين أن المسلمين لم تكد أقدامهم تطأ أرض مصر حتى خرج الأقباط معهم وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا الجسور ، وصارت لهم القبط أعواناً على قتال الروم .. ! ؟

* * *

وأرى من الضروري اثبات أهم الفقرات التي اشتملت عليها معاهدة الصلح بين الأقباط .. وبين عمرو بن العاص ... لقد تحددت من

أول يوم حقوق كل من الطرفين .

وكان الأقباط فيها الطرف الرابح على كلا الجانبين .

لقد جاء في نص هذه المعاهدة ـ ما يأتي ـ بعد الديباجة :

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان ...

« على أنفسهم ...

« وملتهم ......

« وأموالهم ...

« وكنائسهم وصلبهم ..

« وبرهم وبحرهم ...

« لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ..

« وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. ان اجتمعوا ـ أي اتفقوا ـ على هذا الصلح .

« وانتهت زيادة نهرهم ـ أي فاض النيل كعادته ـ خمسين ألف ألف درهم ـ

« ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب ـ أهل النوبة ـ فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم .

« ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا .

« وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا . وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا . ولا يمنعوا من تجارة صادرة . ولا واردة[1] ... »

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ص غ ٢٤ ـ ٢٥ .

... ان المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة في تاريخ القرون الوسطى ، وهي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي حرروها من قبضة الرومان والفرس ... ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد ويوقعونه راضين سعداء ..

* فقد استردت مصر بهذه المعاهدة حريتها الدينية كاملة ...

* وخف حمل الضرائب التي كان يدفعها المصريون الذين أرهقوا بالضرائب الباهظة ...

* وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليوناً من الدراهم . أي أن متوسط ما كان يدفعه الفرد الواحد للحكومة الإسلامية هو خمسة دراهم فقط .. في كل عام ... أي ما يعادل خمسة سنتات في هذا العهد ...

فقد كان عدد المصريين أيام الفتح يتراوح بين ثمانية ملايين واثني عشر مليوناً .

* كما يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان ، ولكنها لا تزيد عن النسبة المقررة خمسة سنتات أو خمسة دراهم في أسوأ الحالات .. كما أنها كانت تؤدى على ثلاثة أقساط ...

* وفي نظير ذلك تعهد المسلمون بحماية مصر من أي غزو وتوفير الأمن والطمأنينة لكل مواطن ، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع ...

* كما تركوا ـ المقوقس ـ الحاكم العام المصري ـ يباشر سلطاته دون تدخل. بل كان المسلمون يلجأون إلى مشورته فى التعرف على أحسن الوسائل المؤدية إلى راحة المصريين وسعادتهم .

* * *

سؤال من المستر بتلر والسيدة ليليان :

ـ أليس في هذه الجزية . نوع من القهر والإذلال لمن تفرض عليهم هذه الجزية ... ؟

ـ شكراً للسيدة ليليان والمستر بتلر على هذا السؤال ...

ان الأصل اللغوي لكلمة « جزية » مأخوذ من كلمة جزي .. جزاء ... والجزاء هو الثمن الذي تدفعه أو تأخذه . نظير عمل معين قمت به . سواء أكان هذا العمل صالحاً أم سيئاً . والمقصود هنا هو المعنى اللغوى الأول فأنت تدفع كذا : جزاء عمل صالح ونافع قدم لك . وهو الدفاع عنك وتوفير الأمن والطمأنينه لمن يحيط بك .

ولكن اعداء الإسلام يشوهون هذه الحقيقة ويطمسون ما فيها من المثل الرفيعة. إلا أن رجلاً منصفًا هو: السير توماس أرنولد قد تصدى لهذه الحملات المغرضة . وكشف الغموض والشك حول ما يثار عن هذه « الجزية » أو هذه « الضريبة » .

يقول السير توماس ارنولد[1] :

« لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ـ كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ـ لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام وانما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة (وهم غير المسلمين) من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة العسكرية في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة (من المسيحيين) المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا

(١) الدعوة إلى الإسلام . توماس أرنولد .

(أي يحموننا نحن المسيحيين) من المسلمين وغير المسلمين » .

والدليل على أن الجزية انما كانت تدفع لهذا السبب ـ وهو حماية المسيحيين ـ أنه حين جمع امبراطور الروم جيشاً كبيرًا لصد قوات المسلمين ، ورأى المسلمون أنه لا بد من الانسحاب واخلاء المدن التي سيطروا عليها . أمرهم القائد العام برد الأموال التي أخذوها من أهل البلاد المسيحيين . وكان مما قاله لأهل هذه المدن « .. انما رددنا وأنكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم (أي نحميكم) وانا لا نقدر على ذلك ..

فقال لهم السكان المسيحيون :

ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم المسيحيين مثلهم ..) فلو كانوا هم مكانكم ، لم يردوا علينا شيئًا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا ... » ؟ !

ومن الواضح أن أية جماعة مسيحية كانت تعفى من اداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي . وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة « الجراجمة » ، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية ، فقد سالمت هذه القبيلة المسلمين ، وتعهدت أن تكون عوناً لهم ، وأن تقاتل معهم على شريطة ألا تؤخذ منهم الجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم ، ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٣٢ هـ أبرم مثل هذا الحلف مع احدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد ، وأعفيت من اداء الخدمة العسكرية .

حتى في أيام الأتراك .. في أيام الحكم التركي الذي كثيراً ما

يوصف بالفظاظة والقسوة نجد هذه الروح الإسلامية مطبقة على رعايا الدولة .

مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا ، وهم جماعة من مسيحيى ألبانيا الذين أعفوا من هذه الضريبة شريطة أن يقدموا جماعة من المسلحين لحراسة الدروب الجبلية التي كانت تؤدي إلى خليج « كورنته » كما أن المسيحيين الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي أعفوا من أداء الخراج . ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب . وقد أعفى أيضاً من هذه الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية وكانوا يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر القوة في الجيش التركي .

ومن جهة أخرى عندما أعفى الفلاحون المصريون المسلمون من الخدمة العسكرية فرضت عليهم الجزية كما فرضت على غيرهم من المسيحيين ...

ان الجزية لم تكن تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح فقط . وقد أعفى منها النساء والرهبان والأطفال وكبار السن .. فهي أي « الجزية » ضريبة دفاعية ... وقد كنا في مصر ندفع هذه الضريبة . نظير الاعفاء من الخدمة العسكرية منذعشرين سنة ..

هذه هي قصة الجزية . كما يرويها مؤرخ انجليزي منصف ... انها ضريبة دفاع لا أقل ولا أكثر .. جزء بسيط من المال تدفعه لإنسان يموت من أجلك .

* * *

ان الجزية لم تكن أبداً سبباً دافعاً إلى الإسلام ... وما قيمة دراهم

معدودة يدفعها الإنسان ثمناً لحمايته ، وتوفير الأمن والسلامة لماله وحياته ؟

ان القول بأن هذه الجزية ألجأت الكثيرين للدخول في الإسلام ينقضه الإسلام نفسه ، وتنقضه شرائع هذا الدين وأحكامه ... ذلك ... لأن الرجل إذا أسلم يدفع أضعاف أضعاف هذه الجزية زكاة مفروضة في كل أنواع ثروته وماله ... فهل يستقيم في نظر أي عاقل أن يغير رجل دينه لقاء خمسة دراهم بينما يعلم أنه بدخوله الإسلام يدفع كل عام ربع عشر أو نصف عشر ثروته وماله ...؟!

* * *

ان المواطن هنا في استراليا . وفي أوروبا وأميركا يدفع أكثر من ثلث راتبه شهرياً لشركات التأمين على الحياة والتأمين على السيارة ، والتأمين على البيت ...

بل اننا نسمع كثيراً عن أناس يستأجرون حراساً خصوصيين لحمايتهم من اللصوص وقطاع الطرق . ويدفعون لهم أجورا مرتفعة في كل شهر .. يفعلون ذلك باختيارهم ورغبتهم .. بعد أن عجزت الدولة عن حمايتهم ...

فإذا كان ذلك جائزاً ومشروعاً في أيامنا هذه ـ أفيلام الإسلام بعد ذلك على سبقه ؟ . وكرم أخلاقه وشهامته؟ ...

* * *

مستر تشارلي ومستر جيمس ...

ـ شكراً على هذه الإجابة .. والآن نعود إلى الأسئلة المقدمة ..

ـ نقصد أصل المسلمين في مصر .. وهل هم مصريون في الأصل ..

ـ أم غزاة قدموا إليها من خارج القطر ؟
ـ قبل الإجابة عن هذا السؤال . لا بد أن نعود إلى الوراء إلى الأيام الأولى من الفتح الإسلامي لمصر ...

بعد هزيمة الروم .. وخروجهم مطرودين ... وتخليص الشعب المصري من طغيانهم الذي دام عدة قرون .. استرد الأقباط حرياتهم المفقودة . واسترجعوا كنائسهم المنهوبة ، وشعروا بالأمان الذي افتقدوه مدة طويلة ..

وهنا .. ظهر الفارق جلياً بين حكمين .. حكم الرومان لإخوانهم في الدين ... وحكم المسلمين للمسيحيين ...

كان أول ما أنجزه القائد عمرو : إصدار بيان خاص يطالب بعودة البطريرك الذي هرب إلى الصحراء فراراً من الظلم ، وقد جاء في هذا البيان الذي أصدره عمرو ما يأتي بالنص :

« .. أينما كان بطريرك الأقباط بنيامين .. نعده بالحماية ، والأمان وعهد الله .. فليأت البطريرك ها هنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملته »[1] ...

لقد تغير ـ في مصر ـ كل شيء ـ وابتسمت الحياة بالأمل والعدل .. لم تعد هناك تفرقة من أي نوع .. القانون يطبق على الحاكم والمحكوم دون محاباة ... ابن الأمير لا يتميز بشيء عن الخادم والأجير .

* لقد استدعى الخليفة عمر بن الخطاب .. حاكم مصر وابنه للاقتصاص منهما ـ لمصري ـ اعتدى عليه ابن هذا الحاكم .. وقد

(١) موسوعة تاريخ مصر ـ أحمد حسين ـ ص : ٣٩٦ .

طلب الخليفة عمر من المصري أن يضرب الحاكم نفسه لاحتمال أن يكون ولده قد تجرأ على فعلته هذه معتمدًا على سلطان أبيه .

*** وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص ـ أى الحاكم ـ أدخل دارها فى المسجد كرهًا عنها .. فيرسل عمر إلى الحاكم يسأله عن الحقيقة فيكتب إليه عمرو :**

أن المسلمين كثروا . وأصبح المسجد يضيق بهم .. ولما كانت دار هذه المرأة بجوار المسجد .. فقد عرضت عليها ثمن هذه الدار ... وضاعفت الثمن . حتى ترضى ولكنها لم توافق .. فاضطررت إلى هدم الدار وادخالها فى المسجد .. واحتفظت لها بقيمة الدار لتأخذها متى شاءت .

فماذا كان جواب الخليفة عمر ... ؟

لقد أمر الحاكم أن يهدم المسجد .. ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت .. !

* * *

لقد ذاق المصريون ـ ولأول مرة ـ طعم العدالة .. وشعروا ـ ولأول مرة ـ بالأمان والحرية ـ ورأوا ـ ولأول مرة ـ الأمير أو الحاكم شخصا عاديا يخطئ فيحاسب .. فإذا جار أو ظلم عزل وحوكم .. لقد انبهر الناس بهذه العقيدة الجديدة .. فاعتنقوا الإسلام جميعا ماعدا قلة بقيت على ديانتها القديمة . لم يكن هناك اكراه لأحد .. لقد أسلم الناس جميعا بمحض الأختيار ... وما كاد ينتهى القرن الأول حتى دخل أكثر الناس أفواجا فى دين الله .

بل إن حاكما مسلما حاول ايقاف هذا المد الإسلامى حتى لا تفلس خزينة الدولة التى كانت تعتمد على الجزية والخراج .. حاول هذا الحاكم المسلم

منع الناس من اعتناق الإسلام خوفا من الإفلاس .. فكتب إليه الخليفة وكان ـ عمر بن العزيز ـ كتب إليه قائلا :

انما بعث الله محمدا هاديا .. ولم يبعثه جابيا ...

إن مسلمى مصر . مصريون أقحاح .. من أحفاد .. تحتمس .. وأخناتون .. ونفرتيتى التى يضرب بها المثل فى الفتنة والجمال ... !

أجدادهم .. أجداد مسلمي مصر .. هم الذين بنوا الأهرام .. وسكنوا « طيبة » و« منف » .. و« قفط » التي اشتقت منها كلمة « قبط » و« أقباط » .. وحرف اسمها لتعرف في اللغة الانجليزية باسم Egypt ايجبت .

كلنا أقباط ... مسلمون ومسيحيون .. الأصول واحدة .. لكل المصرين وإن اختلفوا في العقيدة والدين .

منذ عامين .. وقبل أن أحضر إلى استراليا .. سافرت إلى مدينة مصرية شهيرة اسمها « طنطا » للاشتراك في ندوة عن المسيحية والإسلام . وكان المتحدثان الرئيسيان في هذه الندوة هما : الشيخ الدكتور عبد الجليل شلبي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ومطران الغربية . الأنبا يؤانس ..

لقد تكلم الشيخ والمطران بإفاضة .. وعلت الهتافات مجلجلة باسم الوحدة الوطنية ..

كنت أجلس في هذا الوقت بين مجموعة من الرهبان والقسس .. الأب « متى » والأب « ميخائيل » والأب « تادرس » .

وحين جاء دوري في الكلام .. قلت محتجاً :

أنا أرفض الهتاف باسم (الوحدة الوطنية) ... ان « الوحدة »

تعني الاتفاق أو الامتزاج بين عنصرين مختلفين أصلاً ... ونشأة ... وقد تم خلطهما بطريقة كيمائية مصطنعة ... !

وفي عالمنا المعاصر تعني هذه الوحدة الاتحاد بين شعبين تفصل بينهما مسافات نفسية وعرقية .. ولكنهما لمصلحة خاصة قد اتحدا حرصاً على هذه المصلحة ...

أما بالنسبة لمسلمى مصر. ومسيحيى مصر فالأمر عكس ذلك كله ... كيف توحد بين شقيقين أبناء أب واحد .. وأبناء أم واحدة . ان هذا تحصيل حاصل كما يقول الفلاسفة ... ثم قلت موضحاً ..

ان أي واحد منا لا يحفظ من أسماء آبائه وأجداده أكثر من خمسة : أبوه .. جده .. وجد أبيه . ثم والد هذا الجد .. ثم اسم العائلة الذي ينسب عادة إلى اسم الجد الأكبر لهذه العائلة ...

ثم قلت : هل أحد من الحاضرين يعرف من أسماء أجداده أكثر من ذلك .. ؟

ـ لا أحد يعرف ...

ثم التفت إلى القساوسة الذين يجلسون بجواري مداعباً لهم :

ـ أليس من الجائز يا أب « متى » ويا أب ميخائيل ويا أب تادرس ...

أن يكون الجد السادس أو السابع هو جدي وجدك ؟

اننا جميعاً أخوة .. وفروع لشجرة واحدة .. وإذا كان ولا بد من الهتاف ..

فليكن لهذه الأخوة .. وللأم .. أو « مصر » .. تلك الشجرة المباركة التى تؤتى أكلها . اخاء ومحبة ..

* * *

لقد زارني ـ في مكتبي ـ مستشار ثقافي لاحدى الدول ... وفي معرض الحديث عن الحرية الدينية للأقباط في مصر قلت له :

ـ أي أقباط تعني ... ؟

ـ قال الأقباط ... !

ـ قلت له : الأقباط قسمان ... أغلبية مسلمة .. وأقلية مسيحية ... !

ـ ماذا تقول .. ؟

ـ أقول الحقيقة ..

ثم قلت له :

في سفارتكم موظفون من كلتا الطائفتين .. حللوا فصيلة الدم . طبقوا كل وسائل العلم .. هاتوا علماء الوراثة .. واختاروا نموذجين من أية مدينة أو قرية .. لن تجدوا فارقاً في النهاية بين مسيحي ومسلم .. أو بين مصري .. ومصري ...

لقد كتب أحد الأخوة المسيحيين المصريين رسالة إلى مجلة إسلامية مصرية يؤكد فيها هذا « الأصل » .. أصل المسلمين والمسيحيين فى مصر .. يقول الدكتور فيليب رفله[1] ..

إنه مما لا يعرفه الكثيرون فى خصوص وحدة الأصل للمسلمين والأقباط فى مصر أنه أجريت أبحاث على دماء كل منهما فى القرى والمدن وفى الصعيد وفى الوجه البحرى .. فوجد التماثل والتشابه الكبير بين فصائل الدم فى كل من الأقباط والمسلمين المصريين .

وهذا التوافق الكبير بين فصائل « فئات » الدم بين المصريين ... مسلمين

---

(١) نقلاً عن مجلة « الاعتصام » الإسلامية القاهرية .

وأقباط لم يتأيد بمثله بين العرب فى بلاد أخرى .. فقد وجد الباحث . فى لبنان اختلافا فى فصائل (فئات) الدم بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين الذين يعيشون فى نفس البيئة . ويتكلمون لغة واحدة . ولهم نفس العادات والتقاليد .

وهذا التشابه الكبير الذى يدل على وحدة الأصل يدعمه التاريخ واحداثه المعروفة من أن عمرو بن العاص دخل مصر غازيا بأربعة آلاف ، وجاءه المدد وفيه الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود بأربعة آلاف أخرى .. ثم إن دخول العرب مصر لم يكن بالملايين .. بل بالآلاف .. أما الذى دخل فى الإسلام بالملايين فهم الأقباط .. أى أن معظم المسلمين فى مصر أصلهم أقباط . !

وقد أرسل البطريرك «بنيامين» إلى الأقباط .. وكان مختبئاً من اضطهاد البزنطيين بمساعدة العرب حتى قيل إن البطرك بنيامين يعتبر البطل الثاني للفتح العربي لمصر بعد عمرو بن العاص لمساعدة الأقباط الجدية في فتح مصر .. ثم كان تسامح العرب .. وكان المسلمون يعيدون الأعياد مع الأقباط لقرب عهدهم بالمسيحية ...

وهكذا عاش الأقباط واخوانهم المسلمون في مودة وتعاون .. قبور أجدادهم متجاورة ... ومساكن الاحياء .. أبناء وأحفاد متجاورة ... أصل واحد ، وتاريخ واحد ، ووطن واحد . وتقاليد لا تزال كما كانت قبل الإسلام والمسيحية ...

وقد ساعد الأقباط اخوانهم المسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين . وهذا حق وتصرف سليم .. وقد منع الصليبيون الأقباط من زيارة بيت المقدس لهذا السبب ..

ان الأقباط لا شأن لهم بالسياسة ، ولا الدولة .. بمعنى أن الدين المسيحي لا يتدخل في شؤون الدولة مطلقاً .. فما لقيصر لقيصر وما لله لله ..

كذلك لا شأن لنا نحن الأقباط بسياسة الدولة ، بمعنى ألا يتدخل الأقباط من الناحية الدينية في سياسة الدولة ، فلا يتدخل الدين المسيحي في سياسة الدولة فما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ولم يكن هناك أية ذرة من سلامة الفكر أو الوطنية ، ان يتظاهر هؤلاء ـ المأفونون في خارج مصر .. فلا استعداء لغير المصري على المصري .. فالشأن كل الشأن لنا نحن مع بعضنا هنا في مصر ... فالمصري المسلم أحن على القبطي من أي مخلوق على سطح الأرض .. لأنهم أقرب الخلق للأقباط .. ولذا كان من الخطأ الكبير أن يتظاهر هؤلاء الشبان في الولايات المتحدة فهذه إساءة لنا جميعاً .. وأي قبطي يقبل هذا خائن لوطنه .. ان المصريين مسلمين وأقباطاً .. يتدبرون أمورهم بأنفسهم .. فالوطن عزيز فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد .. المصريون أياً كانوا أعزاء .

ان الدين المسيحي بعيد عن أمور الدنيا والدولة .. فلا يتخذ الدين وسيلة لتحقيق أغراض دنيوية .. فقد طلب أخ من السيد المسيح أن يجعل أخاه يقاسمه الميراث فقال له المسيح عليه السلام « من جعلني عليكما قاضياً ؟ » والمسيحية تجعل الرحمة والتسامح فوق العقوبة والقسوة .. « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ..

ورفض السيد المسيح أن يهلك قرية رفضت دخوله إليها .. ومن تعاليم المسيحية اطاعة الرؤساء . والدعاء لله أن يوفقهم فى أعمالهم ..

وذلك فى صلواتهم .. ولا تقبل المسيحية مطلقًا العمل ضد الرؤساء ..
ولذا كان كل ما قرأته في احدى المجلات الإسلامية من أن هناك تفكيراً أو بيانات من الأقباط تبغي الصلاة في بدء المحاضرات أو انشاء جامعة قبطية ، أو غير ذلك .... انما يتنافى مع تعاليم الدين المسيحي .. فلا يعقل أن يفكر أحد في إخراج أحد من وطنه .. فنحن العرب لم تستطع أن نخرج ٣ ملايين يهودى من فلسطين ونحن المصريين سنعيش أبد الدهر متعاونين ان كنا من العاقلين .

ولا يهمنا نحن الأقباط أن يكون لنا وزير أو أكثر .. فهذا لا يفيدنا في شيء .. فالوزير موظف بالدولة يأتمر بأمر رئيس الدولة ، ويعمل لمصلحة الوطن جميعه بكل فئاته ...

* * *

ان هذا هو صوت مصر الحقيقي كما عبر عنه الدكتور فليب رفله :
صوت المسلم المصري . والمسيحي المصري .. لا تلك الأصوات التي فتلت حبالها بعقد الكراهية . ودرب أصحابها على الحقد والتآمر في أوكار الخيانة .

في كتاب « شخصية مصر »[1] للدكتورة نعمات أحمد فؤاد :
« ... ان المثقفين من المسلمين والأقباط يعلمون بالدراسة والوعي التاريخي ان مصر اعتنقت المسيحية ثم الإسلام بعد ذلك ..
وكما نشرت مصر المسيحية وأضافت إليها كما لم يفعل أحد ...
نشرت مصر الإسلام ومكنت له كما لم يفعل أحد ..

---

(١) صفحة ٢٦٥ وما بعدها ـ بتصرف .

والقائلون من الأقباط بأن المسلمين المصريين دخلاء ظنا منهم بسذاجة أن هذا يتيح لهم أن ينفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب إلى مصر .. لهؤلاء أقول :

هل يشرفهم أن يكون الدخلاء ـ كما يقولون ـ يشكلون أغلبيته والأصلاء هم الأقلية ؟

أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فإن كل فضل للأغلبية أو للأقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا . أمنا مصر . وأبونا النيل ، وبينهما يتفاوت الأخوة وقد يختلفون ولكن عندها يلتقون . وإليها ينتسبون .. وكيف يجوز فى الفهم أن يزيح الفاتحون أهل البلاد . لا سيما اذا كان أهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ... ؟

ان جيش الفتح الإسلامى فى قول كان أربعة آلاف . وفى قول ثمانية آلاف . وفى قول ثالث بعد الامدادات اثنى عشر ألفا .. ويمتد آخرون بالامدادات إلى ثلاثين ألفا ...

وأهل البلاد ـ أهل مصر ـ فى قول ، ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين وفى قول أثنا عشر مليونا ..

فلو أخذنا بأكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين . وبأقل الأعداد بالنسبة للأصليين ..

هل من المعقول ... أو حتى من اللا معقول المخبول أن ثلاثين ألفا يضاف إليهم من لحق من قبائلهم ولو كانوا أضعافا أن يمسحوا بلدا وأى بلد ... ؟ بلدا كمصر ويصيروا هم أصحابه وأغلبيته ؟ ! !

أيهما أكرم لأخوة الوطن ... للأقباط أن نكون دخلاء أم أصلاء ؟

وإذا اعتسفنا المنطق نفسه وقلنا إن المسيحيين المصريين « فلسطينيون »

باعتبار موطن المسيحية الأول «بيت لحم» ... ؟ !

أين مصر إذن بين المسيحيين والمسلمين نتيجة للمنطق العجيب .. ؟ .

يجب أن يعرف هذا الكبار قبل الصغار حتى لا تكون عقد ولا استعلاء ولا تفاضل ولا تناحر يتسلل منه إلينا مستعمر يفرق ليسود . أو جاهل بالتاريخ والدين يحسب التعصب تدينا فيضر بالدرجة الأولى من يتعصب لهم ما يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء في الطرف الآخر...

* * *

ان الوضع الاقتصادي للأقلية المسيحية .. أفضل من الوضع الاقتصادى للأغلبية المسلمة ألف مرة .

في مجال التجارة هم .. الأكثر ..

وفي مجال الطب والصيدلة هم الأكثر ..

وفي مجال التعليم يشاركون المسلم في كل مدرسة وجامعة فوق ما يتوفر لهم من وسائل التعليم في مدارسهم الخاصة .

ان جامعة الأزهر التي يندد بها كاتب الأكاذيب .. جامعة إسلامية .. جامعة تفرض على طلابها وطالباتها دراسة الدين الإسلامي وأصوله .. فهل يريد الكاتب أن نفرض هذا على المسيحيين طالبات وطلبة .. ؟

ان هذا الرجل يناقض نفسه .. ويكذبه الواقع في كل كلمة .. فمرة يقول .. ان الحكومة المصرية تفرض تعاليم الإسلام على الطلبة المسيحيين في مدارس الحكومة .. وهذا كما يقول : ضد حقوق الإنسان واحترام عقائده . ثم هو يطالب بأن يدخل الطلبة المسيحيون جامعة الأزهر التي يعلم جيداً أنها جامعة إسلامية ، وتفرض على طلابها وطالباتها دراسة الدين الإسلامي وحفظ القرآن كله ... ؟

فهل هناك أغرب من هذا التناقض والتخبط .. ؟

وإذا كان هذا كما يقول « محامياً » .. فهل يمكن أن يكسب أية قضية ؟ أو يترافع أمام أية محكمة ؟

(ضحك) ..

ومن قال ان مصر : تشترط فيمن يسافر إلى الخارج أن يؤدي امتحاناً في حفظ القرآن . ان هذا لا يحدث إلا في الأزهر فقط .. لأن الأزهري الذي يسافر إلى الخارج يسافر لهذا الغرض .. غرض نشر القرآن وشرح تعاليمه للمسلمين فقط ..

لقد قابلت في المملكة العربية السعودية مسيحيين يعملون أطباء .. ومحاسبين وتجاراً .. وعمالاً ..

أطباء ومحاسبون . وتجار وعمال من مسيحيي مصر . فهل أدى هؤلاء الامتحان في حفظ القرآن وأصول الفقه .. ؟

ان تعليم الدين الإسلامي . والدين المسيحي يتم على قدم المساواة في كل مدرسة .. وحرية العمل في الخارج مباحة للجميع بدون تفرقة ..

أما جامعة الأزهر .. فان لها وضعاً خاصاً يشبه وضع الفاتيكان وينفق عليها من ريع الأوقاف .

فهل يخطر ببال أحدكم يوماً أن يصدر البابا جون بول الثاني قراراً باختياري عضواً في مجلس الكرادلة ... ؟ !

(ضحك) .

ـ الآنسة فيفيان .. (ودائماً الآنسة فيفيان) .

ـ لقد أخذنا كثيراً من وقتك .. ساعتان قضيناهما جميعاً فى هذا

الحوار الجميل الممتع .. لقد تجاوزت الساعة الخامسة ظهراً ...

وقد بقيت نقطة هامة لم نتكلم عنها بعد .. فهل ترى أن تكمل . أم ترجئ الحديث إلى وقت آخر .. ؟

ـ لا تزال عندي بقية من الوقت .. ساعة ـ بمشيئة الله ـ على الأقل .

(وهنا حدث همس وتقاربت الوجوه بعضها إلى بعض) .

ـ مستر باتلر :

ـ نريد أن نعرف عدد الأقباط المسيحيين بالضبط ..

ـ من حسن الحظ أنني حصلت أخيراً على بحث تاريخي نشر في احدى المجلات ... لقد كتب هذا البحث مؤرخ .. وحدد في صفحاته أرقام كل مرجع . والشيء الجميل في هذا البحث انه يتصل باحصائيات السكان في مصر .. من مطلع هذا القرن إلى هذا اليوم . كانت بداية هذا الاحصاء على أيدي موظفين بريطانيين ـ وهذا مهم ـ ثم قام بهذه الاحصائيات ـ بعد ذلك ـ موظفون مصريون مسيحيون .. وهذا هو الأهم .

فماذا جاء في هذا البحث ؟ أو ماذا يقول هذا التقرير بالنص .. ؟

« إن الحرص على الوحدة الوطنية واجب قومي ما في ذلك شك ، لهذا فان أي حوار حولها ينبغي أن يقوم على الحقائق لا على الأكاذيب والأوهام ، وإلا فلا جدوى من مناقشة تستهدف أصلاً ضرب الوحدة الوطنية باسم الوحدة الوطنية .

وموضوع القضية همس يدور وشائعات تبذر في الظلام بأن الأقلية

القبطية فى مصر قد بلغ تعدادها أربعة ملايين ثم إذا بالرقم يرتفع إلى ستة ملايين ثم إلى ثمانية ملايين ، ورتب مثيرو هذه الشائعات على هذا الادعاء حقوقًا ضمنوها منشورات لم تعد سرًا تداولتها الأيدى فى مصر وبين الجاليات القبطية فى أمريكا واستراليا ووزعت على مراكز الإعلام الأجنبية .

والسؤال هو كيف وصل مثيرو هذه الشائعات إلى هذه الأرقام الإحصائية والمعروف البديهى أن تعدادًا عامًا يحتاج إلى آلاف الأيدى للاشتراك فى أجرائه ؟ والرد العملى يكمن فى مناقشة هذا الادعاء فى هدوء وموضوعية . ومع ذلك فلأى مواطن أن يطعن فى هذه البيانات الرسمية أمام جهات الاختصاص كالمحكمة الدستورية أو مجلس الدولة مؤيدًا دعواه بالأدلة القانونية وبين طوائف الأقليات رجال قانون يحسنون هذا الإجراء إذا اطمأنوا لجدية القضية وإلا كانت هذه الادعاءت غوغائية يحاسب المصدرون لها فى حدود القانون .

والآن ماذا تقول الاحصاءات الرسمية :

١ – جرى أول تعداد في مصر على أسس علمية نظامية في أول يونية ١٨٩٧ الموافق غرة المحرم ١٣١٥ هـ بتشجيع وإشراف من دولة الاحتلال للتعرف على التركيب الحقيقي للمجتمع المصري ، وأشرف على عملية الإحصاء المستشار المالي البريطاني مستر ألبرت وساعد في متابعة العملية مفتشو وزارتي المالية والداخلية وهم من الانجليز وكانت النتيجة كالتالي : –

بلغ مجموع سكان مصر ٩,٧٣٤,٤٠٥ نسمة منهم ٨,٩٧٧,٧٠٢ من المسلمين أي نسبة ٩٢,٢٣ ٪ والباقي من المسيحيين واليهود ، والمسيحيون ينقسمون إلى : أقباط مصريين وإلى مسيحيين من أصول

غير مصرية ، وينقسم الأقباط المصريون إلى أقباط أورثوذوكس ٥٩٢,٣٤٧ نسمة وأقباط بروتستانت ١٢,٥٠٧ نسمة وأقباط كاثوليك ٤,٦٢٠ نسمة .. هذه هي سنة الأساس بالنسبة لتطور سكان مصر .

توالت عمليات التعداد كل عشر سنوات ، وتوالى ارتفاع عدد السكان بمختلف الطوائف مع ثبات النسبة المئوية لكل طائفة ، ففي تعداد عام ١٩٠٧ ارتفع مجموع السكان إلى ١١,١٨٩,٩٧٨ وارتفع عدد المسيحيين من جميع المذاهب بما فيهم الأقباط الأرثوذكس إلى ٨٨٨,٦٩٢ أي بنسبة ٧,٨٧ ٪ .. وفي مارس ١٩١٧ أجرى التعداد الثالث تحت اشراف المستر كريج مراقب الاحصاء والدكتور أ . ليفي وهو انجليزي يهودي وبلغت جملة السكان ١٢,٧١٨,٢٥٥ منهم ١,٠٢٦,١١٥ من غير المسلمين (مسيحيون ويهود) أي بنسبة ٨,٠٦ ٪ .

وفي ٩ يناير ١٩٢٧ أجرى التعداد الرابع وأشرف عليه أول مصري بعد الاستقلال وتمصير الوظائف وهو حنين بك حنين مراقب مصلحة الإحصاء وهو قبطي أورثوذكسي بمعاونة المستر كريج فبلغت جملة السكان ١٤,١٧٧,٨٦٤ منهم ١,١٨١,٩١٠ من غير المسلمين أي أن نسبة جميع الطوائف المسيحية واليهودية بلغت ٨,٣٣ ٪ مع ملاحظة ارتفاع عدد الأقباط الكاثوليك من ٤,٦٢٠ في التعداد الأول إلى ٢٤،٠١٥ والأقباط البروتستانت من ١٢,٥٠٧ إلى ٦٦,٠٨٠ نسمة .

حافظت النسبة المئوية للسكان على أساس الديانة في جميع التعدادات التالية مع فارق الارتفاع التدريجي للأقباط الكاثوليك

٧٢,٧٦٤ والأقباط البروتستانت ٨٦,٩١٨ (تعداد ١٩٤٧) أي أن النسبة العامة للمسلمين إلى مجموع السكان ظلت مستقرة تقريباً وهي ٩١,٨١ ./ في عام ١٩٣٧ و ٩٢.٠٩٪ في عام ١٩٤٧ .

في تعداد ١٩٦٠ ارتفعت جملة عدد السكان إلى ٢٥,٩٨٤,١٠٦ منهم ٢٤,٠٦٨,٢٥٢ من المسلمين و ١٨٢, ١,٩٠٥ من جميع الطوائف المسيحية .. أي أن نسبة الطوائف المسيحية كانت ٧,٣٣ ./ منهم ٦,٤٩ ./ من الأقباط الأرثوذكس وتكررت النتيجة في تعداد عام ١٩٧٦ فارتفعت جملة السكان إلى ٣٦,٦٥١,١٨٠ منهم ٢,٣١٥,٥٦٠ من غير المسلمين أي بنسبة ٦,٣٢ ./ منهم ٥,٦٨ من الأقباط الأرثوذكس ، وهذا الانخفاض النسبي يعزى إلى ارتفاع في عدد الأقباط الكاثوليك والبروتستانت والى هجرة أعداد من الشباب القبطي الأرثوذكسي المتعلم إلى استراليا وكندا والولايات المتحدة ، فإذا اعتبرنا ان الأقباط الأرثوذكس يمثلون ٩٠ ./ من مجموع المسيحيين فان عدد الأقباط الأرثوذكس في مصر في الوقت الحاضر هو في حدود المليونين فقط (٢,٠٨٤,٠٠٤) ، وغير ذلك أوهام في رؤوس أصحابها .

ان مناقشة هذه الأرقام التي تمخضت نتيجة لنظام وضعت أسسه تحت اشراف انجليزي وانتقل إلى اشراف مصري قبطي أرثوذكسي لا يسمح لإثارة الشكوك حوله ولا يسمح لنقض أو رفض والا تحولت أية مناقشة إلى سفسطة بالامعان في المبالغة والاختلاف ـ وتحويل المئات إلى آلاف والآلاف إلى ملايين ..

ان تعداد سكان دولة كمصر يحتاج إلى أكثر من ٣٠ ألفاً من

الموظفين المسلمين والأقباط للمشاركة في اجرائه ، وهل يمكن أن تجري في الظلام مؤامرة يشترك فيها ثلاثون ألفاً لا يعرف بعضهم البعض .

تؤكد صحة ودقة البيانات السابقة الاحصاءات التفصيلية على مستوى المحافظات التي تكاد أن تكون نسبتها مستقرة ثابتة ، ففي الفترة بين عام ١٨٩٧ ، ١٩٧٦ تراوحت نسبة الطوائف المسيحية في المحافظات الآتية (على سبيل العينة) على النحو الآتي : أسيوط بلغت النسبة (وهى أعلى ما يكون على مستوى البلاد) بين ٢١,٧ و١٩,٩٪ وفى القاهرة بين ١٥,٩٪ و١٠,١٣٪ وفى قنا بين ٨,٥٪ و٧,٥ ٪ وفي الشرقية بين ٢,١ ٪ و١,٣ ٪ وفي الدقهلية بين ٢,٠ ٪ و١,١ ٪ فمن ثم كان متوسط النسبة المئوية للطوائف المسيحية مجتمعة على مستوى الجمهورية منذ عام ١٨٩٧ حتى اليوم هي ٧,٧٢ ٪ .

ومع أن هذه البيانات استخلصت من احصاءات مباشرة فان هناك ميزاناً لتيقن مدى صحتها وذلك باجراء مقارنة لعدد المواليد والوفيات خلال عام من الأعوام على أساس الديانة وهي بيانات مثبتة في شهادات الميلاد والوفيات وتخطر بها أولاً بأول منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعتين لهيئة الأمم المتحدة .

نأخذ مثلاً عفوياً قريباً وهو عام ١٩٧٤ ففيه بلغت جملة المواليد في مصر ١,٢٨٧,٦١٤ منهم ١,٢٢٣,٣٠٠ من المسلمين و٦٤,٣٦٤ من غيرهم (طوائف مسيحية ويهود) وقد بلغت جملة الوفيات في نفس العام ٤٥٧,٦٢٠ منهم ٤٣٠,١٢٢ من المسلمين و٢٧,٤٩٨ من غيرهم .. أي ان مجموع الزيادة المئوية للسكان في هذا العام بلغت ٨٢٩,٩٩٤ منها ٧٩٣,١٧٨ من المسلمين و٣٦,٨١٦ من غيرهم .

من هذا يتضح أن النسبة المئوية على أساس المواليد والوفيات لغير المسلمين تدور في جميع الحالات حول ٦,٢٢ ./ وهو ما يؤكد صحة التعدادات المباشرة .

ليس الصوت الأعلى نبرة يمنح صاحبه حقوقاً ليست له ، وليست هذه النغمة التي نسميها اليوم جديدة وليست هذه الحملة غريبة ولكنها تبرز كلما وجدت الوقود لها .. ولنرجع إلى الماضي غير البعيد ولنحتكم إلى أصوات لا يتهم أصحابها بالتواطؤ أو المحاباة .

يوضح اللورد كرومر في مؤلفه (مصر الحديثة) الروح المتعصبة لبعض الأقباط المتطرفين (مجلد ٢ فصل ٣٦ الطبعة الانجليزية) بقوله : ـ

ان مبادئ الحيدة الدقيقة التي طبقها الحكم البريطاني كانت غريبة عن طبيعة القبطى. وعندما بدأ الاحتلال البريطانى أخذت تساور عقله آمال معينة فكان القبطي يقول لنفسه : انني مسيحي والانجليز مسيحيون فلو كان الأمر بيدي لكنت تعصبت للمسيحيين على حساب المسلمين... وكان يقول لنفسه: ولما كان للإنجليز السلطة فإنه من المؤكد أنهم سوف يحابون المسيحيين على حساب المسلمين ... هذا هو الخطأ المحزن الذى يلام هؤلاء الأقباط عليه .

ولما اكتشف القبطي أن هذا الأسلوب في التفكير عقيم وان سلوك الانجليز مرجعه مبادئ لم يضعها القبطي في اعتباره ويعجز عن فهمها .. تملكه إحساس بالفشل عمق ضغينته .. لقد كان يرى أن تطبيق العدالة بالنسبة للمسلمين يعنى الظلم له وكان يعتقد ـ ولو بطريقة غير

شعورية ـ إن الظلم وعدم محاباة الأقباط ألفاظ مترادفة .. [انتهى . من تقرير «كرومر»] .

ثم دعنا نستمع إلى بريطانى آخر لايتهم كذلك بالمحاباة وهو السير الدون جورست المعتمد البريطاني ، ودعنا نقلب تقريره والمرفوع إلى حكومته بتاريخ ١٠ مايو ١٩١١ والذي يلقي الضوء على محاولات بعض المتطرفين الأقباط اثارة الخواطر بدعوى أن الأقباط في مصر لا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها المواطنون المسلمون. قال ما ترجمته :

«أن المسلمين يؤلفون ٩٢٪ من مجموع السكان ويمثل الأقباط أكثر قليلا من ٦٪ (٧٠٠ ألف) وأن هذه الأقلية القبطية موزعة توزيعًا غير متساو بين أنحاء البلاد فهم يمثلون أقل من ٢٪ من السكان فى ٣٠ مركزا إداريا بين ٤٠ مركزا بالوجه البحرى بينما ترتفع نسبتهم إلى ٢٠٪ فى ٩ مراكز فقط من ٣٧ فى الصعيد .

لهذا فإن فكرة معاملة قطاع من سكان البلاد كطائفة مستقلة فى نظرى يمثل سياسة خاطئة سوف تكون فى النهاية مخربة لمصالح الأقباط .. إن شكوى عدم تطبيق العدالة مثلاً فى التعيين فى الوظائف الحكومية تنقضه الإحصاءات التى تبين أن الأقباط يشغلون نسبة من الوظائف العامة تزيد بكثير عن نسبة قوتهم العددية التى تسمح لهم بذلك لكم يتبين من الجداول الآتية أن جملة العاملين بوزارات الحكومة بلغ ١٧,٥٩٦ منهم ٩,٥١٤ من المسلمين أى نسبة ٥٤,٦٩٪ و ٨,٠٨٢ من الأقباط أى بنسبة ٤٥,٣١٪ بينما فى بعض الوزارات ترتفع هذه النسبة أكثر بكثير.. فوزارة الداخلية واداراتها المحلية تضم ٦,٢٢٤ موظفا منهم ٢,٣٤٦ من المسلمين نسبة

٤٥,٦٩٪ و ٨,٠٨٢ من الأقباط أى بنسبة ٦٥٪ .. من هذا يتبين أن الأقباط يمثلون فى الجهاز الحكومى من حيث العدد والمرتبات نسبة لا تتكافأ مطلقا مع نسبتهم العددية .. إننى لا أقر مطلقًا فى ضوء مصالح الأقباط أنفسهم أن أشجع أى نظام من شأنه أن يحدث انشقاقًا بين الطوائف المسلمة والقبطية لأنه ليس فى صالح الطائفة القبطية (انتهى) .

ان هذه المقتطفات التي سجلها المندوب السامي البريطاني ووجهها إلى حكومته فى عام ١٩١١ والذى لا نشك فى حسن نواياه للطائفة القبطية تمثل الواقع المعاصر . فالأقلية القبطية التي ما زالت في حدود ٦ ./٠ من مجموع السكان تحصل على امتيازات تفوق نسبتها العددية وهذا ينصرف إلى نسبة الأقباط في الوظائف العامة وفي جملة المرتبات التي يحصلون عليها من الخزانة العامة وينصرف إلى نسبة المقبولين في الجامعات والمعاهد العليا وبالتالي تنعكس هذه النسبة على انخفاض عدد المجندين في الجيش العامل بسبب استثناءات المؤهلات وتنصرف كذلك إلى الاجازات الرسمية التي يتمتع بها الموظف القبطي بالنسبة لأغلبية الجهاز الحكومى والقطاع العام. وتنصرف كذلك إلى دور العبادة من كنائس وغيرها مما تسمح لهم الدولة باقامته على غير أساس من الكثافة الطائفية ، وتنصرف إلى استثناء الأوقاف القبطية من تطبيق قانون الإصلاح الزراعى. حتى أن صوتًا فى مجلس الشعب ارتفع مطالبًا بمساواة الأغلبية بالأقلية التي تتمتع بامتيازات لا تتناسب مع نسبتها العددية إذا قورنت مصر بأية دولة توجد بها مثل هذه الأقلية فى العالم . !

* * *

« .. فما سر هذه الضجة حول الأقليات ؟ وما معنى هذا التوجس

والقلق الذي يبديه غير المسلمين كلما ذكر الحكم الإسلامي ، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الإسلام وشرع الإسلام ... [1] » ؟

ان هذا التوتر لم ينبع من الداخل .. جاء من الغرب الذي شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة ولم يرفع يده عنها بعد .. ولا يزال الغرب يكيد للمنطقة متذرعًا إلى ذلك بشتى الذرائع وفى مقدمتها ـ بل أهمها ـ إثارة الأقليات .

ان السياسة التي اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هي استخدام مسألة الأقليات المسيحية في الشرق ـ لإثارة الفتن والقلاقل التي تخدم أغراضه ، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين ..

ويصف المؤرخ « ليدوفيك دى كونتش » هذه السياسة فيقول :

كان الغرب يعمل جاهداً على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين . فى نفوس المسيحيين يتلقونها خلفاً عن سلف ، ويرضعها الطفل من شعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها .. فتسري في كيانه مسرى الدم فى عروقه ، وتنشأ عقيدة تقضي على العلاقة بين المسلم والمسيحي إلى الأبد .. ! »

وفي سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامي الذي لم تعرف الإنسانية له نظيراً .. متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع فى بعض البلاد وبعض الأزمان نتيجة لظروف تحدث في كل الدنيا .. »

---

(١) الأقليات في المجتمع الإسلامي د . يوسف القرضاوي .

وفى هذا يقول «متز» :
«ان أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر- يعنى في القرون الأولى ـ نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط ـ ولا ننكر ان هناك حكاماً ظلموا أهل الذمة أو تشددوا عليهم .. ولكن هذا يعتبر شذوذاً من القاعدة العامة في التسامح الإسلامي مع غير المسلمين .. » .

وفي الغالب ان هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين ـ قبل اليهود والنصارى ـ فان الظالم لا يقف ظلمه عند مسلم أو غير مسلم ..

بل إن كثيراً من ظلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم على حين كان يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم .. بل اننا نجد أن عالماً جليلاً من علماء المسلمين هو الشيخ أحمد الدرديري ـ شيخ الإسلام في عصره ـ يذكر عن حكام هذا العصر أنهم كانوا يكرمون أهل الذمة من اليهود والنصارى ـ أكثر من المسلمين ـ حتى قال هذا الشيخ الجليل: يا ليت هؤلاء الحكام يضربون على المسلمين الجزية كالنصارى واليهود ـ ويتركوننا بعد ذلك كما تركوهم .. ؟ !

بل إن من أعظم بواعث الاستغراب ـ كما يقول « جوتييه » في كتابه ـ أخلاق المسلمين وعاداتهم ـ أنه حدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة أنه كان من النصارى وزراء حرب .. وكان على القواد ـ حماة الدين ـ أن يقبلوا أيدي الوزير وينفذوا أمره ... !

بل هناك ما هو أكثر من هذا ...

ففي عهد الدولة الفاطمية وصل بعض اليهود والنصارى إلى أرقى المناصب المالية والادارية في الدولة . وقد استغل هؤلاء نفوذهم في الاساءة إلى الإسلام والمسلمين حتى ان امرأة مسلمة كتبت إلى الحاكم

المسلم تشكو إليه وتقول :

« .. استحلفك بالذي أعز اليهود بـ « منشا » ـ اسم رجل يهودي ـ والذي أعز النصارى بـ «ابن نسطورس» ـ اسم رجل مسيحي . والذي أذل المسلمين بك ـ تقصد الحاكم ـ ! ! ! ألا قضيت أمري ـ أي حاجتي . ! ! !

وقد فاضت من هذه الحال ـ التي وصل إليها أمر المسلمين بسبب تعسف عمال الدولة من اليهود والنصارى ـ قلوب الناس بالمرارة والخيبة حتى وصف بعض شعرائهم ذلك في قوله :

يهود هذا الزمان قد ملكوا غاية آمالهم وما ملكوا
العز فيهم والملك عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك .. !

ووصف شاعر آخر ما وصل إليه حال المسلمين على أيدي موظفي الحكومة من المسيحيين فقال[1] :

إذا حكم النصارى في الفروج وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الإسلام طرا وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج . !

ـ السيد تيلر والسيدة نانسي :

ـ متى حدث هذا ؟

ـ في القرن الرابع الهجري أي منذ ألف عام تقريباً .. وكانت الدولة

---

(١) نقلاً عن كتاب « أهل الذمة في مصر العصور الوسطى » ـ دكتور قاسم عبدة قاسم ص ٥١ - ٥٣ - وكتاب « التعصب والتسامح » للشيخ محمد الغزالي .

الإسلامية هي أقوى قوة في العالم . والمد الإسلامي يجتاح ممالك الدنيا شرقاً وغرباً ..

* * *

وقبل أن نختم هذه الحلقة من الحوار . أريد أن أسألكم هذا السؤال .. أليس كل شعب حراً في اختيار النظام الذي يروقه ، والقانون الذي يطبقه .. ؟

أليست الديمقراطية هي حكم الأغلبية . والحكم بمقتضى ما تراه هذه الأغلبية ؟

فإذا حاولت «فئة» أو «أقلية» فرض إرادتها على هذه الأغلبية ألا يعتبر ذلك أسوأ مثال للطغيان والدكتاتورية ؟ وهل تقبل الحكومة الاسترالية أو الشعب الاسترالى أن يتقدم ـ الـ «مائتا ألف مسلم» الموجودون هنا فى استراليا ...

هل يقبل الشعب والحكومة من هؤلاء المسلمين المائتي ألف أن يفرضوا على الدولة نظاماً معيناً أو تشريعاً معيناً يتعارض مع فلسفة الحكم ونظامه في استراليا ؟

ان المسلم الاسترالي يخضع للقانون الذي يخالف في كثير من مواده عقيدة هذا المسلم وايمانه وبالرغم من ذلك لا يخرج المسلمون في مظاهرات تتهم الحكومة الاسترالية والشعب الاسترالي بالهمجية والتعصب أو إهدار حقوق الإنسان التي نص عليها ميثاق هيئة الأمم .

وقوانين الزواج والطلاق والميراث ... ؟

ان هذه القوانين تتعارض كثيراً مع قوانين الأحوال الشخصية بالنسبة للمسيحي أو المسلم .

فهل اعترض هؤلاء على تلك القوانين التي تتنافى مع أصول شريعتهم في الوطن الأم مثلاً ... ؟ !

* * *

ان المشكلة في حقيقتها ليست مشكلة حقوق وواجبات . فهؤلاء الذين يصرخون ويولولون صباح مساء .. يعلمون حق العلم أن حقوقهم مكفولة في الوطن الأم .. وأن القانون لا يفرق بين مسلم أو مسيحي في مصر ..

ولكن جوهر المشكلة . والباعث الحقيقي لهذا السخط والثورة انما هو الإسلام والدعوة إلى تطبيق شريعة الإسلام ..

هل سمعتم برجل مسلم ـ يحمل الجنسية الاسترالية ـ يعترض على علم الدولة الذي يحمل صورة الصليب .. ؟

هل اعترض مليونان من مسلمي بريطانيا لأن القانون البريطاني ينص على أن الملكة هي رئيسة الكنيسة وحامية حمى المسيحية ؟

ان المسيحيين هم أقرب الناس إلى قلوب المسلمين كما يقول القرآن :

« ... ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ... »

أفتبقى بعد هذا البيان الإلهي الناصع في قلب أحدكم شبهة أو شك ... ؟

وكيف تكون هذه الحياة إذا لم نعمرها بالاخاء والمودة والحب ... ؟

* * *

ان الحرية لا تتجزأ ...

وكرامة الإنسان ... أي إنسان ... لا تتجزأ ..

الحرية الإنسانية والكرامة الإنسانية حقان مكتسبان بالفطرة .. فطرة الله التي فطر عليها الإنسان واختاره خليفة عنه في أرضه ..

لقد مرت جنازة رجل يهودي أمام النبي محمد (ص) فقام لها احتراماً ...

وحين تعجب الصحابة من موقف النبي أمام جنازة رجل ينتمي إلى أعدائه رد عليهم قائلاً :

أليست نفساً ... ؟ !

ولكن المسلمين ليست لهم هذه الكرامة عند مخالفيهم في العقيدة .. ان القانون الدولي إلى عهود قريبة كان يعتبر هؤلاء المسلمين كائنات شاذة لا يطبق عليها مثل هذا القانون . ولا تقرر لهم آية حقوق في هذا القانون وكانت الاساءة إليهم ، والاعتداء عليهم حقًا مشروعًا في هذا القانون ... ولأكون واضحاً ... وليكون كلامي مؤكداً .. أضرب لكم مثلاً واحداً للتعاسة والمعاناة التي يتعرض لها المسلمون في بلد افريقي يرتبط بهؤلاء الشانئين والمبغضين برباط العقيدة وبرباط المذهب الذي تدين به هذه الطائفة ...

هل سمعتم بالحبشة ... أو « أثيوبيا » التي كانت تحكم إلى عهد قريب بامبراطور اختار لنفسه اسم هيلاسلاسي أو قوة الثالوث ! أو أسد يهوذا المنحدر من صلب الملك سليمان وبطن بلقيس !

لقد سافر أستاذان جليلان من جامعة الأزهر لدراسة أحوال المسلمين في شرق أفريقيا وبخاصة أحوال هؤلاء المسلمين في اثيوبيا . فماذا كتب هذان الأستاذان أو ماذا رأيا في الامبراطورية المحكومة

بأسد يهوذا حفيد بلقيس والملك سليمان ؟ :

« بعد انتهائنا من زيارة الصومال رأينا أن نواصل الرحلة إلى الحبشة نظراً لأن الميعاد المحدد لدخولنا أوشك أن ينتهي فسافرنا يوم ٢٦ من يوليو . سنة ١٩٥١ بالسيارة إلى جيجيجا وهي أول مدينة من مدن الحبشة في جنوبها الشرقي ، وتعتبر عاصمة الصومال الاوجاديني .

وبعد أن نزلنا الفندق ومكثنا فيه ساعة ونصف الساعة أمرنا بمبارحة المدينة ، ولم يسمح لنا بالإقامة ، فاضطررنا للعودة إلى هرجيسة في مساء اليوم الذى دخلنا فيه ، ثم برحنا هرجيسا إلى عدن ، ثم منها إلى اسمرا . وبعد أن أقمنا عشرة أيام ، أخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا بأن وزارة خارجية أثيوبيا سمحت لنا من جديد بدخول الحبشة . فسافرنا بالطائرة إلى أديس أبابا يوم الخميس ١٦ من أغسطس سنة ١٩٥١ وأقمنا بها اثني عشر يوماً ، حاولنا خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم في العاصمة والمدن الكبيرة ، وأن نتصل بالمسلمين ، فلم نستطع إلى ذلك سبيلا لأسباب خارجة عن أرادتنا .

ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثير من شؤون المسلمين في الحبشة . وسنذكر بعض ما سيمكننا ذكرهنا في هذا التقرير ، متوخين الحقائق التي يهم أولي الأمر الاطلاع عليها » .

ثم يمضى التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغريبة التى لا يكاد يعرفها أحد ، وهى أن نسبة المسلمين فى الحبشة بصفة عامة لا تقل عن ٦٥ فى المائة من مجموع السكان ، وأنها ترتفع فى بعض المناطق إلى ٨٥٪ وتهبط فى بعضها إلى ٢٥ فى المائة وهى فى عمومها أغلبية أكيدة ، مع انقسام البقية من السكان إلى مسيحيين ويهود ووثنيين .. ويعتمد التقرير فى هذا على الإحصاء الإيطالى

الدقيق . الذى قام به الإيطاليون فى سنة ١٩٣٦ ، واحصاءات القنصليات الأجنبية فى الحبشة .. وهى حقيقة غريبة كما قلت ، ويزيدها غرابة ما سنعرفه من إهمال العنصر الإسلامى اهمالاً تامًا فى الوظائف والتعليم والمعيشة وتجريده من سائر حقوق المواطنين !

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولاً : أن الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الايطالي ، قد اغتصبت من المسلمين ثلثي أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين ، حرصاً على افقارهم وانحلالهم .

ثانياً : أن الحكومة الحبشية تمنح ارساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية في الوقت الذي تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محلته إلى محلة أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم وتقضي على كل محاولة ترمي إلى ذلك ، وقد جاء في تقرير لهذه الارساليات أنه يمكن تنصير جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظراً لجهلهم وفقرهم ، وعدم وجود من يعلمهم دينهم ، أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم .

ثالثاً ـ أن أكثر المسلمين في الحبشة اهتماماً بنشر علوم الدين ، هم مسلمو مقاطعات كفا ـ جيما ـ وللو وهرر ، وأنه كان في جيما وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين ، ولكن بعد أن أعلن ضمها إلى الامبراطورية الحبشية واعتقل سلطانها الأمير عبد الله ابن السلطان محمود بن داود المشهور باسم أبي جعفر وزج به فى غيابة السجن .. استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت

أكثرها ، وغيرت مناهج ما بقي منها ، ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الإسلامي أثراً فيها .

رابعاً : ان السلطة الحبشية جاهدة في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وأنها انشأت لذلك حوالي مائتي مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات ، ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المائة من مسلمي الحبشة ، الذين لم تجد الحكومة بداً من قبولهم لظروف خاصة .. وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لا تقوم الحكومة بالانفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المائة من ميزانية التعليم . هذا بالاضافة إلى أن برنامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامي نصيب منها ، حتى في المناطق الإسلامية المحضة .

خامساً : ان المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامي ، واللغة العربية في المدارس التي بها . فعينت مدرسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامي ، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية ، واختارت مدرس الدين الإسلامي من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئاً من تعاليم الإسلام ، ولم تحدد لحصة الدين زمناً خاصاً كغيرها من حصص الأمهرية ، والانجليزية وسائر العلوم ، التي تعلم في المدرسة بل كلفت مدرس الدين الإسلامي أن يجمع التلاميذ في الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيها المبادئ التي لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها ، وما شاكل ذلك ، فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم ، ويمر العام

كله دون أن يلقي عليهم درساً واحداً .

سادسًا : أن الحكومة اختارت فى العام الماضى بعثات من المتخرجين فى بعض المدارس ، وأوفدتها إلى المعاهد المختلفة فى الخارج ليعودوا فيتولوا المناصب الكبيرة فى الدولة ، وقد كان من بين المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ، ولكن بعد أن تمت اجراءات سفرهما حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة .

سابعًا : انه كان للمسلمين ثمانى مدارس ، وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامى .. ومواردها تأتى من التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض ، وكانت تقوم بتعليم ثلاث آلاف من أبناء المسلمين ، وقد ظلت تؤدى مهمتها رغم جميع المتاعب إلى سنة ١٩٤٩ .. ولكن الحكومة أرادت اخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين ، فلما رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكًا اضطر أعضاؤها بسببه إلى التخلى عن مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منها ، وعندئذ حذفت منها مادتى اللغة العربية والدين الإسلامى .

ثامنًا : أن المدارس الباقية فى طريقها إلى هذا المصير البائس لأن الوسائل التى اتبعت بشأن المدارس الثلاث ماضية فى طريقها ، وقد تركت البعثة الحبشة ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها .

تاسعًا : أن إحدى المدارس الباقية ، طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين المصريين بالحبشة ، أن يقوموا بتدريس بعض العلوم فى أثناء فراغهم نظرًا لحاجة المدرسة إلى بعض المدرسين الأكفاء ، ولكن

المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب .

عاشراً : أن الكتب العربية لا يسمح بدخولها إلى أثيوبيا ، ولا تداولها أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة .

هذه هي الحقائق المفجعة في القرن العشرين ، وهذه هي الأحوال التي يعيش في ظلها خمسة وستون في المائة من سكان الحبشة لا لسبب إلا أنهم مسلمون .

فإذا أضفنا إليها ما علمته عن ثقة من أن المسلمين محرومون من وظائف الدولة جميعاً في الحكومة الحبشية ، ومن الخدمة العسكرية كي لا يكون منهم جنود ، وأنهم إلى عهد قريب جداً كان المدين المعسر منهم يصبح رقيقاً يباع ويشترى إذا كان دينه لمسيحي ، ولم تبطل هذه الشناعة الا على يد الطليان عام ١٩٣٦ . ؟ ! !

* * *

إن اثيوبيا ليست وحدها فى هذا السياق ... فى أكثر البلاد الأفريقية تعامل الأغلبية المسلمة هذه المعاملة ، وتهدر دماء وحقوق هذه الأغلبية فى أكثر من دولة ... ؟

فلماذا لا يصحو ضمير العالم الا على قرع الأجراس .... ! بينما يغط هذا الضمير في نوم أهل الكهف عندما تجأر المآذن بطلب النجدة والصراخ .. ؟ !

« تقوم حركة اسلامية .. دستورية . حزبية . في تركيا .. فتصبح صحف الغرب : يا للكارثة . يا للرجعية . يا للخطر . !

ويرتفع صوت الكنيسة الكاثوليكية في بولندا ... فتصبح صحف الغرب : ما أعظم اليقظة الكاثوليكية . انها هي التي حفظت شخصية

الشعب البولندي ألف سنة . ؟ !

ويقع انقلاب عسكري في تركيا . يلغي الأحزاب والبرلمان ويضع الزعماء في السجن ويحاكم بعضهم بتهم رسمية منها بالنص : بدء الخطب العامة بـــبسم الله الرحمن الرحيم. أنهم ينسبون كذبا إلى المسؤولين انهم يقيمون الصلاة ــ ان برنامجهم يدعو إلى اعادة متحف ايا صوفيا مسجداً كما كان ... فتقدم صحف الغرب الانقلاب العسكري . والأحكام العرفية .. على أنه كان عملاً راقياً . ومهذباً . وضرورة لا مفر منها .. وانقاذاً لتركيا من الدمار ... ؟ !

وتقوم الدولة في بولندا بانقلاب عسكري . وتعلن الأحكام العرفية . فتقوم الدنيا . ويتكهرب الموقف الدولي . ويتحدث ريجان كل يوم شارحاً كيف انه لا ينام الليل لأن شعب بولندا يعيش تحت الأحكام العرفية . ويمنع المال والطعام عن شعب بولندا وحكومته [1] ؟ ! .

ألم أقل لكم :

بأن المسلمين يعيشون خارج نطاق القانون الدولي وخارج نطاق الضمير الدولي ... ؟

ترى لو كان المسيح حياً بيننا إلى اليوم .. ماذا كان يقول لهؤلاء المرجفين بالباطل ؟

هؤلاء الذين يرون القشة في أعين الغير ، ويتعامون عن الخشبة التي في أعينهم ... !

« الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ...

فانكم تعشرون النعنع والشبت والكمون وتتركون أثقل ما في الناموس

---

(١) أحمد بهاء الدين ــ جريدة الأهرام .

وهو العدل والرحمة والايمان ...

كذلك أنتم يرى الناس ظاهركم مثل الصديقين وأنتم من داخل ممتلئون رياء ونجاسة ...

فإنكم تغلقون ملكوت السموات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون ..

ولا الداخلين تتركونهم يدخلون ... ! ! !

متى : الاصحاح الثالث والعشرون .





الحلقة الثالثة والأخيرة من هذا الحوار

* هوامش حول الحلقة الثانية ....
* بيان الجمعيات الاسترالية الإسلامية ...
* سؤالان من الآنسة «كاترين» عن الإسلام
  وموقفه من الرق والتفرقة العنصرية ....
* الرق منذ أقدم العصور ...
* موقف الديانتين اليهودية والمسيحية من هذه المشكلة
* عندما جاء الإسلام ...
* كينتا كونتي ... وقصة الجذور ..
* الفلاسفة ذوو القلوب السوداء .... !
* نماذج شاذة من المسلمين ...... !
* حزب بريطاني جديد ضد السود والملونين ...
* عندما يتكلم النبي محمد ...
* مع الإسلام في مجال التطبيق ...
* ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ... ، .. كيف ؟
* « فرتونه » السوداء والخليفة عمر بن عبد العزيز ..
* اله واحد .. لكل البشر ...



لم أكد أتهيأ للانصراف من المسجد . متجهاً إلى محطة القطار
Central Station في طريقي إلى أشفيلد Ashfield
حتى اعترضني السيد بيتر Peter والسيد ماكدونالد Makdonald
ومعهما الآنسة «كاترين» المتخرجة من جامعة أكسفورد . وهم
يلوحون باحدى الصحف ...

قال السيد ماكدونالد :

« هل قرأت هذا البيان الذي أصدرته الجمعيات الاسلامية الاسترالية ؟» كان هذا البيان منشورًا فى صحيفة «التلغراف»[1] التي تصدر باللغة العربية في مدينة سيدني باستراليا .. وفي هذا البيان الذي نشرته هذه الصحيفة تقول الجمعيات الإسلامية الاسترالية ما نصه بالحرف :

في صباح الخميس الثالث من شهر أبريل « نيسان » سنة ١٩٨٠ أذيع بيان باسم الكنيسة الأورثوذكسية في سيدني عما يقال بأنها

(١) عدد الجمعة ١٩٨٠/٤/١١ .

أحداث وقعت في مصر ضد الأقباط . واذاعة هذا البيان على النحو الذى أذيع به يثير ضمير أى إنسان ينتسب إلى الإنسانية وينسب إلى شعب مسلم عريق كالشعب المصري تهما باطلة وافتراءات ظالمة .

أولاً : لأن هذا الشعب المصري لم يعرف في تاريخه كله شيئاً من هذا التعصب وكانت مصر ولا تزال ملجأ لكل لاجئ ومضطهد .

ويكفي مصر فخراً أنها كانت الملجأ المختار للسيد المسيح عليه السلام وأمه السيدة مريم حين لجأ إلى مصر فراراً من المؤامرة التي دبرت ضده منذ ألفي عام .

ثانياً : كان دخول الإسلام إلى مصر منذ حوالي ألف وأربعمائة عام هو طوق النجاة وسفينة الخلاص للمسيحيين المصريين الذين عانوا على يد إخوانهم في العقيدة .. « من الرومان » أهوالا بعد أهوال ، فلما استتب للمسلمين الأمر بعد هزيمة الرومان نعموا بالأمن والحرية والكرامة التي افتقدوها طوال الحكم الروماني المتسم بالتعصب والإذلال .

ثالثاً : ولما كان الإسلام يحترم السيد المسيح كنبي ورسول من الله ، ويعتبر الايمان برسالته ونبوته كالايمان برسالة ونبوة محمد عليه السلام ، ويؤكد الايمان بالانجيل الذي أنزل على المسيح إيمانه بالقرآن ، فقد قرر الإسلام من المبادئ والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم واحترام عقائدهم ، والحفاظ على أموالهم وحماية أعراضهم وأرواحهم ، واعتبر العدوان على مسيحي أو يهودي عدواناً على الإسلام وانتهاكاً لحرمة القرآن .

رابعاً : لقد نعمت كل الأقليات الدينية في الدولة الإسلامية وفي مصر خاصة بكافة الحقوق التى لم تتوفر لهم فى الدولة الرومانية المسيحية ، وشاركوا إخوانهم المسلمين في الحياة العامة ، ولم يفرق الحكام المسلمون بين المسلمين وغير المسلمين آية تفرقة .
وقد اعترف بهذا الأنبا شنودة بطريرك الكنيسة الأورثوذكسية أكثر من مرة ..

خامساً : إن الجالية الإسلامية في استراليا تدعو كل عادل ومنصف أن يقرأ تاريخ الأقليات الدينية في الدولة الإسلامية . وسيرى هؤلاء المنصفون العادلون أن هذه الأقليات بلغت من الجاه والسلطة في بعض مراحل التاريخ مكاناً يفوق مكانة المسلمين في الحكم والسلطة ، ولم تقل الأغلبية الإسلامية الساحقة ، إن هناك اضطهاداً وقع ضدها من الأقلية الدينية .

سادساً : لم يسمع في مصر في القديم والحديث ، أن مسلماً اعتدى على غير مسلم بسبب دينه أو عقيدته . ولم يسمع ولن يسمع أن مصرياً اعتدى على شرف امرأة لا تدين بدينه ، إن المسلم – أي مسلم – مهما كانت ثقافته الدينية يعلم علم اليقين أن حرمة العرض مصونة مقدسة . لمسلمة أو غير مسلمة وحتى لو كان إنساناً غير متدين ، فان التقاليد الموروثة في شعب كالشعب المصري تستبعد حدوث مثل هذه الجريمة . فكيف إذا كان من ينسب إليهم هذا العمل ممن يوصفون « بالتعصب الديني » إن التعصب وإن كان شيئاً مرذولا إلا أنه في مثل هذه الحالة يقف شاهداً كدليل براءة من هذه التهمة ..

سابعًا : لماذا لا يثار هذا الكلام إلا من بعض مسيحيي مصر ، لقد عاش في مصر مسيحيون من كل بلاد الدنيا ، وهنا في استراليا يوجد الألوف من الاخوة اليونانيين والإيطاليين والأرمن الذين هاجروا إليها من مصر ، فهل نقل عن أحدهم شيء مما أذيع هنا ضد الشعب المصري المسلم ، إننا نعلم أن الكثيرين منهم يبكون شوقاً كلما ذكر اسم مصر أمامه ، ويتمنى أن يعود إليها في أقرب فرصة .

ثامناً : إنه من الملاحظ أن مصر قد تعرضت منذ عشر سنوات لمثل هذه الافتراءات التي ليست في صالح أحد ، فهي افتراءات تسيء إلى المسيحى كما تسيء إلى المسلم، وهى فى النهاية لا تخدم دينا ولا طائفة ولا تحقق سلاماً ولا محبة . وتهدم جسور التعاون والألفة ولن يستفيد منها سوى « الشيوعية » التي تسعى لهدم الديانات السماوية السمحة .

تاسعاً : إن الجالية الإسلامية الاسترالية حريصة كل الحرص على البقاء خارج هذه المؤامرات التي تستهدف وحدة الصف والكلمة وتملأ النفوس بالحقد والكراهية، فليس من مصلحة أى طرف أن ينقل إلى استراليا ـ البلد الذي اخترناه مهجراً ، أن ينقل إليها بذور الفتنة ويزرع فيها أشواك الحقد والكراهية، بل يجب أن نكون جميعًا أخوة ونعمل يداً واحدة لبناء صرح الاخاء والمحبة وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار في استراليا .

* * * *

قلت للآنسة «كاترين» والسيدين بيتر وماكدونالد :

ـ هل قرأتم ما في هذا البيان بدقة .. ؟

ـ لقد ترجم لنا من العربية إلى الانجليزية .. وقد تعرفنا على بعض اليونانيين ـ والإيطاليين الذين عاشوا في مصر . قبل هجرتهم إلى استراليا ـ فأكدوا ما فيه كلمة .. كلمة ..

قلت للآنسة «كاترين» والسيدين بيتر وماكدونالد :

ـ لكن الشيء المؤسف «أن الناس هنا .. بل وفي معظم بلاد أوروبا وأميركا ـ لا يعرفون عن هذه الحقائق شيئاً» ..

فالإسلام «الضحية» .. والإسلام «المفتري عليه دائماً» تحاول بعض الدوائر الكنسية والسياسية تصويره بصورة الوحش المتعطش للدم .. وتحاول تصوير المؤمنين به بصورة الهمج المتوحشين في معاملة غير المسلم ...

إن عندنا مثلاً يقول : «رمتنى بدائها وانسلت»، أى وصفتنى بما فيها من عيوب ونقائص ثم وقفت تباهي بنقائها وطهارتها التي تعلم يقيناً أنها زيف وفجور في الواقع ...

وحالنا نحن المسلمين مع أكثر دول الغرب . ومع أكثر غير المسلمين هو حال هذه المرأة التي يضرب بها هذا المثل ..

إنني لم أشأ أن أفتح الملفات القديمة في حوارنا السابق عن الإسلام والأقليات الدينية . لقد ضربت مثلاً واحداً بأحوال المسلمين في الحبشة ... بينما الأمثلة في هذا المجال كثيرة لا تعد ولا تحصى .

إنني لم أتكلم عن إبادة المسلمين في الأندلس ...

ولم أذكر شيئاً عن محاكم التفتيش ...

أما الحروب الصليبية فأنتم تعرفون عنها الكثير جداً ...

ولكن أشير إلى مثل واحد من الأمثلة المعاصرة . سأقول لكم ماذا فعلت فرنسا في الجزائر ... ؟

وماذا فعلت ايطاليا في طرابلس ... الغرب ... ؟

* * *

بعد احتلال فرنسا للجزائر أعلن قائد الغزو الفرنسي « روفيجو » رغبته في تحويل المساجد إلى كنائس ...

ثم قال :

إنه يلزمه أجمل مسجد في المدينة ليجعل منه معبداً لآله المسيحيين وطلب إلى أعوانه أعداد ذلك في أقرب وقت ... !

ثم أشار إلى مسجد « القشاوة » أجمل مساجد الجزائر وأمر على الفور بتحويل المسجد إلى كنيسة : !

وفى الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش . وأخذت أهبتها للعمل . وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين فهاجمت المسجد بالفؤوس والبلط . وإذا بداخل المسجد ٤٠٠٠ أربعة آلاف مسلم اعتصموا جميعًا خلف الأبواب دفاعًا عن المسجد .

فاندفعت نحوهم القوة العسكرية فدحرتهم بالسناكي والحراب فخروا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود واستمرت هذه المعركة طوال الليل . !

فلما انتهى الجنود من هذا المسجد تحولوا إلى مسجد « القصبة » الغني بذكريات الإسلام . ففعلوا به ما فعلوا بالمسجد السابق . !

ثم اصطف الضباط والجنود بعد ذلك لإقامة قداس ابتهاجًا بهذا الفوز العظيم فى أكبر المعارك ... !!!

وقبل أن يخرج الجنود وقف « بوجو» سكرتير الحاكم يخطب ويقول من فوق منبر المسجد :

إن آخر أيام الإسلام قد دنت ... وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ... ؟! .

ونحن إذا أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا . فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ... !

إن ايطاليا كانت تحمل الأسير المسلم في الطائرة ثم يسأل :

ـ من نبيك ؟

فإذا قال : محمد . ألقي به من الطائرة بعد أن يقال له :

ـ ليأت محمد ويخلصك . ! ! !

انني كما قلت لا أريد نبش القبور ... ولا فتح الملفات ...

فتاريخ الغرب وشعوبه مع الإسلام يسود وجه الشمس . وإذا كان « القرآن » يقرر بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى . فنحن كمسلمين نرحب بنسيان جرائم الآباء وابتداء صفحة جديدة من الحب والاخاء من الأبناء ... ؟ !

* * *

* سؤال من الآنسة «كاترين» :

لقد حضرنا الحلقتين السابقتين من هذا الحوار . إننا ـ كما تعلم ـ لم نتكلم طوال هذا الوقت الذي استغرقته هاتان الحلقتان ...

لقد تكشفت لنا حقائق مثيرة .. وظهر علينا الإسلام في صورة تتألق بالنبل والطهارة ...

غير أني أستأذنك ـ ويوافقني في ذلك ـ السيدان بيتر وماكدونالد في سؤالين محددين :

السؤال الأول : عن الإسلام وموقفه من الرق ؟

والسؤال الثاني : عن القرآن . وهل قسم الناس إلى درجات تختلف باختلاف الرزق ، والجنس ، والعرق ... ؟

* * *

ما كادت الآنسة «كاترين» تفرغ من توجيه سؤاليها السابقين حتى سمع فريق الحوار بالمناقشة فانضموا جميعاً إلى هذه الحلقة ، وعادت «ريما» كما كانت إلى عادتها القديمة . !

ـ ماذا تقولين يا آنسة «كاترين» ؟ لقد خطرت ببالنا هذه الأسئلة .. غير أننا لم نجد وقتاً لطرحها على بساط البحث والمناقشة ..

وهنا رفعت يدي بالموافقة . والعودة إلى الجلوس استعداداً لبدء هذه المعركة .

* * *

لم أكن متحمساً لاستئناف هذا الحوار . ذلك . لأن القضايا المطروحة للمناقشة هذه المرة تمس الشعب الاسترالي مسا عنيفاً ... فقد دخلت استراليا تاريخها الحديث عن طريق الجريمة . وعن طريق الاسترقاق وحروب الابادة . وهو نفس الطريق الذي سار فيه الشعب الأميركي ضد الهنود الحمر في الولايات المتحدة ..

غير أني أيقنت بعد تجربة طويلة . أن الشعوب الأوروبية ـ رغم ما تتمتع به من رخاء ورفاهية ، وديمقراطية وحرية ـ أيقنت أن ذاكرة هذه الشعوب ضعيفة بالنسبة لقضايا الإنسان والحرية . وأنها لا ترى أبعد من

مواطئ أقدامها أو مصالحها فى معرض الحوار والمناقشة ...

أذكر حين سافرت إلى كمبردج Cambridge عام ١٩٦٩ م لقد التقيت في المعهد الذي كنت أدرس فيه بشاب سويسري يعمل مهندساً ... هذا الشاب المهندس المتخرج في الجامعة سألني يوماً :

ـ من أي البلاد أنت .. ؟

ـ من مصر ..

ـ مصر أين هي ؟

وبعد حوار طويل صاح قائلاً :

ـ آه . مصر التي تحارب اسرائيل .. ؟ لقد عرفتها الآن ... ؟

لقد صعقت من هول المفاجأة ... مصر التي يعرفها الناس منذ آلاف السنين ، ومصر ذات التاريخ العريق منذ فجر الحضارة .. وفى كل الكتب المقدسة .. لا يعرف عنها هذا المهندس السويسرى ـ واسمه كاسبا Kasba ـ إلا أنها الدولة التى تحارب إسرائيل التى لم يكن قد مضى على إنشائها فى هذا الوقت عشرون سنة .. !

* * *

ألم أقل إن هؤلاء القوم محدودو الرؤية والبصيرة ... وأنهم لا يرون أبعد من مواطئ أقدامهم ومصالحهم في معرض الحوار والمناقشة ؟

غير أنه لم يكن خيار في الاعتذار عن هذه المواجهة ، ولم يكن هناك مفر من الاجابة على هذين السؤالين اللذين نختم بهما هذا الحوار وهذه المناقشة :

قلت للآنسة «كاترين» والسيدين «بيتر» وماكدونالد :

لقد كان الرق نظاماً طبيعياً عند اليونان . وقد أقره فلاسفتهم جميعاً بل إن افلاطون اعتبره عملاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه وكان قاسياً في النظام الذي سنه لعقاب الأرقاء فيما يسمى الجمهورية الفاضلة التى كان يحلم بها ... ومن رأيه أن الرحمة إذا وجبت بالأرقاء فليس لأنهم أناس يستحقون الرحمة . بل لأنهم فقراء أخساء لا يليق بالأحرار أن يتنزلوا إلى عقابهم وايذائهم ... !

وقد اشتركت الحضارات القديمة كلها في هذه الجريمة فالقانون الروماني ـ الذي لا يزال معمولاً به في أوروبا ـ كان يرى الرق شيئاً طبيعياً ، وكان يبيح للدائن أن يبيع مدينه إذا عجز عن الوفاء . بل كان الرومان يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكاً للفاتح يتصرف فيهم كيف يشاء فله أن يقتلهم ومن حقه أن يستعبدهم ومن حقه أن يبيعهم ..

كذلك . كان النظام في بلاد الفرس ..

وفي الهند كان القانون يقسم الناس إلى أربع طبقات . في قمتها البراهمة وفي قاعها « الشودر » أو المنبوذون ...

أما عند اليهود فقد عرفوا بهذه النزعة الهمجية .. فهم يرون أن جميع الناس ـ ما عدا اليهود طبعاً ـ إنما خلقهم الله ليكونوا في خدمة اليهود ...

وكان الاسرائيليون يسترقون جميع النساء والأطفال في البلد الذي يغلبونه ...

أما الرجال فقد كانوا يضربون رقابهم بحد السيف ويفنونهم جميعاً كما أمرتهم الكتب التي يقدسونها ..

وفي سفر التكوين : أن حام بن نوح ... وهو ابن كنعان كان قد أغضب أباه ... لأن نوحاً سكر يوماً ... ثم تعرى وهو نائم ... فأبصره حام كذلك .. فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه . غضب ولعن نسله الذين هم كنعان .. أي العرب ... أو الفلسطينيون .. ! ! !

وقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته ... وليكن كنعان عبداً لهم .. وبذلك تأكد الاعتراف بالرق في كتبهم التي يرون قداستها ...

وبما أن المسيح .... قد جاء ليكمل الناموس ... أى الشريعة اليهودية ولم يجئ لينقضها . فقد أقرت المسيحية الرق الذي أقره اليهود اليهود من قبل ... ولم يجئ في الانجيل نص واحد يحرمه أو حتى يستنكره .

بل إن بولس الرسول قال في رسالته إلى أهل « أفسيس » : الإصحاح السادس :

أيها العبيد ... أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد للمسيح ..

كذلك فعل القديس بطرس ... ثم جاء توماس الأكويني الذي مزج رأي الدين بالفلسفة فلم يعترض على الرق بل زكاه لأنه حالة ضرورية ..

بل نصح القديس « أزيدوروس » الارقاء ألا يطلبوا الحرية حتى لو أمرهم أسيادهم بذلك لأن البقاء في العبودية يخفف عن العبد

الحساب يوم القيامة . وأن المساواة التي تعنيها المسيحية ليست هنا بل في مملكة المسيح السماوية .

وفي معجم « لاروس » وهو معجم فرنسي كتبه أساتذة مسيحيون يقول بالنص : لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم . فإن رجال الدين المسيحي يقرون بصحته ويسلمون بمشروعيته ولم يثبت مطلقاً أنهم استنكروه أو طالبوا بإلغائه .

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور « جورج يوسف » تأكيد لما جاء في معجم لاروس وتكرار لكل ما قاله وما جاء فيه .

ولقد حدث منذ عشر سنوات أن قامت الكنيسة بأغرب عملية اختطاف واسترقاق ... وكان لها ضجة عالمية .

فقد ثبت أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بحملات منظمة لبيع وشراء الفتيات من ولاية كيرالا الهندية ... وحين أجرى التحقيق اعترف الكاردينال بأن هذه العملية كان تتم بعلم البابا ورعايته .. ؟

* * *

عندما جاء الإسلام كان الرق كما يقول الفيلسوف الألماني جوته .. « حكمة » في رأي بعض الفلاسفة .. « وضرورة » . كما يزعم الطغاة والجبابرة .. « وقدراً » كما كان يتكلم المتحدثون باسم الدين .

كانت هناك عدة مصادر لهذا الاسترقاق الذي اصطدم الإسلام بوجوده ..

المصدر الأول : الحرب بجميع أنواعها فكان الأسير في أية حرب أهليه أو خارجية يسترق ويستعبد .

المصدر الثاني : القرصنة أو الخطف فكان ضحايا هذه العمليات الهمجية يسترقون ويفرض عليهم الرق .

المصدر الثالث : ارتكاب بعض الجرائم كالزنا والقتل والسرقة فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق إما لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجني عليه .

المصدر الرابع : عجز المدين عن دفع دينه فكان يحكم عليه بالرق لصالح الدائن وقد كان هذا الاسترقاق معمولاً به في الحبشة مع المسلمين وحدهم . !

المصدر الخامس : سلطة الوالد على أولاده فكان يباح له أن يبيعهم في حالة الفقر .. وكذلك بيع الزوجات . وكان موجوداً إلى عهد قريب في أوروبا .. فقد حاول رجل انجليزي بيع زوجته سنة ١٩٣١ ، وحين رفع الأمر إلى المحكمة رفضت البيع .. ثم قالت : إن هذا القانون أبطل ... ؟ ! !

المصدر السادس : بيع الرجل نفسه لرجل آخر لقاء ثمن معين....

المصدر السابع : تناسل الأرقاء فكان ولد الأمة يولد رقيقاً حتى لو كان أبوه حراً ....

وكان هذا النوع من الرق مصدراً كبيراً للأرقاء في هذا العصر ..

* * *

فماذا فعل الإسلام ؟

كان أول ما فعل ان أبطل وألغى خمسة أنواع من الاسترقاق .. وتريث بالنسبة لنوعين فقط من أنواع الرق .. هما رق الحرب . ورق الوراثة ... تريث بالنسبة لهذين النوعين فقط جريا على عادته في

علاج الأمور بالتدريج خطوة خطوة ... كما فعل مع الخمر ...
ثم فرض بعد ذلك على هذين النوعين من الرق كثيراً من القيود التي تقضي عليهما في نهاية الأمر .

بالنسبة لرق الوراثة قرر الإسلام أن الأمة التي تلد ولداً من سيدها يصبح هذا الولد حراً على الفور متى اعترف به السيد ...
أما بالنسبة لرق الحرب فقد قرر الإسلام أن أسرى الحرب بين طائفتين مسلمتين لا يسترقون أبداً فلا يجوز لمسلم أن يسترق مسلماً .
أما الأسرى الذين يؤسرون في حروب بين المسلمين وغير المسلمين . فقد قرر الإسلام :

أنه لا يصح استرقاق هؤلاء .. إلا بشروط . أهمها أن تكون هذه الحرب حرباً شرعية أي يجيزها الإسلام فإذا كانت هذه الحرب مما لا يجيزه الإسلام . فلا استرقاق لأحد من المأسورين .

وحتى لو كانت هذه الحرب مما يجيزه الإسلام . وكان الطرف الآخر هو المعتدى فإن الاسترقاق ليس شيئًا حتميا بل يجوز للإمام أن يطلق سراح الأسير بدون فدية أو بفدية . أو نظير عمل يقوم به ـ كما حدث فى بدر ـ أو فى نظير أسرى من المسلمين عند العدو .

والقرآن لم يتعرض لكلمة الاسترقاق أبدا ...

«فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ... حتى إذا أثختنموهم فشدوا الوثاق .. فإما منًّا بعد .. وإما فداء ..» .

وبهذا يتبين ما فعله الإسلام حيال مصادر الرق. لقد قضى عليها ما عدا اثنين ... ثم قيد هذين الاثنين بقيود تقضي عليهما في النهاية ..

هل هذا فقط هو كل ما عمله الإسلام ؟

لقد فتح الإسلام أمام الرقيق أبواب الحرية ، وأتاح لهم فرصاً كثيرة ... مثلاً إذا قال السيد لعبده أنت حر .. حتى على سبيل المزاح . فان العبد يصبح حراً .. حتى لو كان هذا السيد فاقداً للرشد .

ومثل آخر ... إذا جرى على لسان السيد كلمة « تدبير » أي الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده .. فان هذا العبد يصبح حراً بعد موت السيد حتى ولو كان السيد مازحاً .. أو لاهياً ...

ومن أسباب العتق أن يأتي السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته فان هذا الولد يعتبر حراً من يوم ولادته وتصبح أمه حرة بمجرد وفاة السيد .

ومن أسباب العتق في الإسلام « المكاتبة » بأن يتفق السيد مع عبده على مبلغ معين يسدده له بعدها يصبح هذا العبد حراً .

ولتأكيد ان الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق .

فان جزءاً من ميزانية الدولة خصص لمساعدة الأرقاء في تحرير أنفسهم ..

(إنما الصدقات ... للفقراء والمساكين .. والعاملين عليها . والمؤلفة قلوبهم . وفي الرقاب . والغارمين . وفي سبيل الله وابن السبيل » .

وقد سأل جريج عطاء بن رباح :

أواجب على إذا طلب مني مملوكي أن أكاتبه ؟ فقال عطاء : ما أراه إلا واجباً :

ثم قرأ قول الله تعالى : والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا ...

هل اكتفى الإسلام بذلك ؟

لا زالت هناك وسائل أخرى ...

لقد عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء وجعل كفارتها تحرير الأرقاء .

ومن هذه الجرائم والمخالفات ما يأتي :

أولاً ـ كفارة القتل الخطأ :

« ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة » ..

ثانياً ـ الحنث في اليمين :

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ... ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » .

ثالثاً ـ كفارة الظهار[1] :

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا .. فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا .. »

رابعاً :

جعل الإسلام عتق العبيد وتحريرهم من أعظم القربات عند الله

---

(١) الظهار هو أن يقول الزوج لزوجته أنت عليّ كظهر أمي . فإن الزوجة في هذه الحال تحرم على الزوج حتى يكفر عن يمينه كما هو وارد في نص الآية ..

حتى كان الرسول يضرب به المثل في الحث على الصالح من الأعمال .

من فعل كذا فكأنما اعتق رقبة أو يكون ثوابه عند الله كثواب من أعتق رقبة ..

وماذا أيضاً .. ؟

لقد سن الإسلام من الشرائع والقوانين لحماية الأرقاء ومعاملتهم أحسن معاملة ـ في حالة عدم تحريرهم ـ ما يكفل لهؤلاء الأرقاء حياة أكرم وأحسن من حياة كثيرين ممن يسمون بالأحرار في هذا العصر .

يقول النبى (ص) :

لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم ...

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .

وأمر النبي أن ينادى الرقيق بألفاظ لا تجرح مشاعرهم ولا تخدش كرامتهم ...

« لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاى وفتاتي وليقل المملوك سيدتي وسيدي فإنكم المملوكون والرب عز وجل » .

ورأى النبى رجلاً على دابة وغلامه ـ أى عبده ـ يسعى خلفه فقال :

يا عبد الله احمله خلفك فانما هو أخوك روحه مثل روحك .

يقول فاندبرج :

لقد وضع الإسلام قواعد جليلة للرقيق تدل على ما كان ينطوي

عليه محمد (ص) من شعور إنساني نبيل يناقض كل المناقضة تلك الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشي في طليعة الحضارة .

لهذا كان كثير من الرقيق يفضل حياة الرق في ظلال هذه المبادئ على الحرية الوهمية في بلاد وأمم تسترق شعوبها بالجملة ...

* * *

هذا هو موقف الأديان .. وموقف الإسلام ..

فماذا فعلت أوروبا .... ؟

عندما اتصلت أوروبا بأفريقيا كان هذا الاتصال مأساة انسانية عرضت سكان هذه القارة لليل طويل استمر خمسة قرون متوالية .

مأساة اشتركت فيها كل شعوب أوروبا وبخاصة الاسبان والبرتغال والانجليز . كان يتم اصطياد الرقيق من سواحل أفريقيا بعد إشعال النار في الأكواخ التي يعيشون فيها ... كان يموت في عملية القنص جماعات كثيرة . وكان ثلث الباقين يموت أثناء عملية الشحن أثناء الرحلة . أما من كانوا يموتون فى المستعمرات فلاحصر لهم . لقد دخل مستعمرة جامايكا ١٨٢٠ حوالي ٨٠٠,٠٠٠ ثمانمائة ألف .. مات منهم نصف مليون في سنة واحدة .. !

إن بريطانيا اختطفت حوالي ثلاثة ملايين من شواطئ أفريقيا .. وكانت القواعد التي يتجمع فيها هذا الرقيق قبل تصديره إلى أميركا في ليفربول ولندن وبريستول ولانكشاير وكانت الملكة اليزابث الأولى تشارك في هذه العملية ، وكانت شريكة لـ « جون هوكنز» أكبر تاجر رقيق في تاريخ العالم ، وقد أنعمت عليه الملكة بلقب سير .

وجعلت شعاره رقيقا يرفل في القيود والسلاسل . !

ومن الأشياء المضحكة ان السفينة التي أعارتها الملكة لجون هوكنز اسمها « يسوع » وقد طلبت الحكومة الانجليزية من رجال الدين المسيحي الفتاوي التي تبيح لهذه الحكومة استرقاق البشر ..

فقام رجال الدين بالمطلوب .. وكتبوا لها ما جاء في أسفار العهدين القديم والجديد من اباحة استعباد البشر ...

في الحضارة الأوروبية لم يكن للرقيق أية حقوق . بل العكس ... فقد صدر قانون يقول :

من اعتدى من الرقيق ــ أقل اعتداء على أحد من السادة يقتل وإذا أبق العبد أي هرب قطعت أذناه ورجلاه وكوى بالحديد بالنار وإذا هرب للمرة الثانية قتل .. أما السيد فإنه لا يعاقب ولو قتل ألف زنجي ... !

وقد اشتركت الكنيسة في هذه المأساة بصورة أخرى .. إنها لم تكتف باصدار الفتاوي التي تبيح استرقاق الأفريقي . بل كانت ترسل القساوسة والكهان إلى موانئ الشحن والتصدير ليباركوا هؤلاء المساكين . ويخلصوا أرواحهم الشريرة من التفكير أو العودة إلى بلادهم التي اختطفوا منها حتى لا يحرموا من ملكوت المسيح وكانوا يتقاضون مبلغاً معيناً من المال على كل رأس تساق إلى مخازن التصدير ... ؟ ! !

* * *

هل تذكرون قصة كينتا كونتي ... ؟

لقد عرض التليفزيون الاسترالي مأساته الكاملة منذ شهرين هنا في مدينة سيدني ...

كينتا .. هذا هو بطل كتاب « جذور » الذي يروي فيه أليكس هيلي قصته منذ ولد في قرية جوفيور في جامبيا إلى أن مات في تنيسي في أمريكا ويرويها في مئات من الصفحات هي جولات شائقة في تاريخ أفريقيا ولمحات سريعة عن العرب والإسلام .. وصور بشعة عن الاستعمار الأوروبي .. ويروي من خلال هذا كله قصة الحرية الإنسانية التي مرت عبر التاريخ بكل المآسي .

* * *

أبوه اسمه عمر ... وينطقونه هناك أمورو .. وهو اسم ثاني الخلفاء الراشدين ، وكينتا إمام المسجد في القرية أو هو إمام القرية وزعيمها . وكان رجلاً صالحاً ورعا جاء ماشيا على قدميه عبر الصحاري قادماً من بلاده موريتانيا .. واستقر به المقام في هذه المنطقة التي انقطع عنها المطر خمس سنوات متتالية حتى هلك الحرث والنسل. فأخذ الرجل الصالح يصلي صلاة استسقاء خمسة أيام وليال متتالية أمضاها راكعاً ساجداً .. واستجاب الله إلى دعائه فانهمر المطر ورويت الأرض فاهتزت وربت ـ وأنبتت العشب ، تأكله الماشية والدواب فيأكل الناس ويشربون .

وأنجب عمر ولداً فهمس في أذنه قائلاً : سيكون اسمك مثل اسم جدك كينتا .. وكان من عقائدهم أن الطفل يجب أن يعرف اسمه قبل أن تعرفه أمه أو أحد من أهله لأن الاسم يوحي إليه بالصفات التي سيتميز بها طول حياته .. ولكل مسمى من اسمه نصيب .

وفي سن الخامسة دخل المدرسة أو الكتاب فحفظ سورا وأجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب .. ثم أخذ يتعلم اللغة العربية قراءة

وكتابة .. وراح يعرف أشياء كثيرة من هؤلاء (الرواة) الذين كانوا يفدون إلى القرية من حين لآخر .. فيلتف حولهم أهل القرية ويستمعون إلى قصصهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فينصرفون إلى المسجد لصلاة الفجر .

وكان الرواة يقولون فى قصصهم الشائقة الأخاذة إنه قبل أن يأتى البيض إلى أفريقيا كانت هناك مملكة قديمة اسمها غانا .. وكانت فيها مدينة لا يسكنها أحد سوى الملك ، ومعه نساء الملك ، والذين يخدمون الملك ويخدمون نساءه. وكان أشهر ملك هناك هو «الملك كابنساى» الذي كان عنده ألف حصان مطهمة بسروج وألجمة من الذهب .. وفي كل مساء كان الملك يخرج من قصره فتوقد النار في ألف مشعل ينبعث منها الضوء الباهر فيغمر الدنيا من السماء إلى الأرض .. وكان الملك يجلس على أريكة عالية ، ويجلس قريباً منه أولاده وشعورهم تلمع فيها قطع من الذهب .. ويحيط به حراسه ، ثلاثة آلاف من الرجال الأشداء ، على صدورهم دروع من الذهب وفي أيديهم سيوف من الذهب وهناك كلاب كبيرة أطواقها من الذهب تقف على الأبواب متربصة مثل الحراس الأمناء ..

وكانت هذه السيوف والدروع والأطواق مصنوعة في تلك البلاد التي اشتهر بعض الناس فيها بحرف الصناعة والسباكة . بينما اشتهرت نساؤها بنسج الأقمشة وصنع الملابس الموشاة بسلوك الذهب والفضة .

ويمضي هؤلاء (الرواة) الذين يعرفون كل شيء من التاريخ القديم الذي مضت عليه مئات من فصول المطر .. أي مئات من السنين .. فيقولون إن مملكة غانا هذه لم تكن أهم الممالك في أفريقيا .

كان هناك ما هو أغنى وأقدم منها وهي « امبراطورية مالي » .. وكانت فيها مدن عظيمة أشهرها مدينة « تمبكتو » التي كانت هي مركز العلم والتعليم في أفريقيا . فقد كان يقيم فيها مئات من العلماء وكانت تأتي إليها من شتى الأرجاء أفواج من العلماء والحكماء ، يلتمسون مزيداً من المعرفة ومن العلوم .. ولم تكن هناك قرية صغيرة في أفريقيا إلا وفيها إمام أو مدرس قد ذهب إلى تمبكتو وتعلم فيها .. وكان في المدينة تجار كبار أثرياء بعضهم لا تجارة له إلا بيع الكتب المسطورة على الجلود والأوراق ، ويأتي الناس إليهم من شتى بقاع الأرض ليشتروا هذه الكتب والذخائر .

* * *

عندما نقرأ هذه الصفحات المسهبة في كتاب « جذور » فلا بد أن نتصور أن إليكس هالي قد قرأ بعناية كتاب ابن بطوطة وغيره من الرحالة المسلمين .. فقد ذهب الرحالة العربي في سنة ١٣٥٢ إلى مملكة مالي ووصفها بأن طولها أربعة شهور وعرضها أربعة شهور وقال في كتابه : إن الزنوج هم أكثر الناس اقامة للعدل وكرها للظلم وإنه لا يعرف أناسًا يفضلون الزنوج فى هذا المضمار فإن حكامهم لا يرحمون أحدًا قام بشيء فيه خروج عن العدل . ولهذا فإن الأمن مستقر فى بلادهم ولا يشعر المسافر أو المقيم بأى خوف من السرقة أو الاعتداء ..

وأظن أن أليكس هيلي قد قرأ واقتبس من كتاب « ليو الأفريقي » .. وهو رغم اسمه ، رحالة عربي اختطفه القراصنة وباعوه في سوق الرقيق في روما ثم اعتقه من اشتراه ليتفرغ لتعلم اللغات وتأليف الكتب ، فوضع في سنة ١٥٥٠ كتابه « وصف أفريقيا » الذي قال فيه : في مدينة تمبكتو عدد كبير من القضاة والأطباء

والكتبة وقد عينهم الملك في وظائف عالية وهو لا يكرم أحداً مثلما يكرم رجال العلم وتجارة الكتب في المدينة اروج وأربح من سائر أعمال التجارة الأخرى .

ولا شك في أن كتاب « جذور» بكل ما لقي من ذيوع وشهرة سوف يرغب كثيراً من الناس في أن يعرفوا تاريخ أفريقيا القديم ... تاريخ تلك القارة التي وصفها الأوروبيون وهي في أزهى عصورها بالقارة المظلمة مع أنها كانت قارة مضيئة بالعلم والتجارة والرخاء عندما كانت أوروبا هي القارة المظلمة . وليس الأوروبيون والأمريكيون وحدهم هم الذين يجهلون تاريخ أفريقيا القديم بل إن معلوماتنا نحن العرب عن هذا التاريخ ضئيلة للغاية فقد نعرف شيئاً عن لفنجستون وستانلي اللذين اكتشفا منابع النيل وعن « سيسيل رودس » الذي سميت باسمه روديسيا ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن : اسكياس محمد الأول الأكبر الذي بلغت امبراطورية مالي عهده (١٤٩٣ - ١٥٢٨) أوج مجدها .. فقامت فيها الجامعات العلمية .. بل عرفت المصارف التي تقرض التجار لتذهب سفنهم محملة بمنتجات أفريقيا ومصنوعاتها إلى شتى أرجاء المعمورة حينذاك .

ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين كانوا على قدر كبير من الحضارة في أفريقيا فصاروا عبيداً رقيقا في أمريكا ؟

ان أكثر من أربعة ملايين منهم قد حدث لهم ما حدث للشاب كينتا الذي تدور حوله قصة جذور[1] ... The Roots

* * *

(١) «الجذور» ، ترجمة عبد الحميد الكاتب .

هذا هو موقف الإسلام من قضية الرق .. وهو موقف يناقض تماماً موقف الديانات والمذاهب المعروفة في الغرب أو الشرق ..

فإذا كان لدى الآنسة «كاترين» أو السيدين بيتر وماكدونالد . أي اعتراض على ما قلت . فليقدموه من الآن قبل أن يغلق باب هذا الحوار ويصفق !

السيدان بيتر وماكدونالد :

لقد قرأنا في بعض المراجع أن تجارة الرقيق كانت شائعة في بعض الأقطار الإسلامية حتى نهاية النصف الأول من هذا القرن ..

وقرأنا أيضاً :

أن أحد ملوك الإسلام في هذا العصر أعلن إلغاء الرق ـ الذي كان معترفاً به ـ بعد توليه السلطة وشؤون الحكم ...

ألا يمثل هذا تناقضاً بين ما قلت عن الإسلام وموقفه من الرق .. وبين تجارة الرقيق التي كانت شائعة في بعض بلاد الإسلام دون حرج أو قيد ؟

قلت للسيدين بيتر وماكدونالد :

إن الإسلام يسمى الخمر «أم الكبائر» .. ويعتبر الزنا من أكبر الفواحش .. فهل إذا شرب مسلم الخمر .. أو مارس الفاحشة في مكانها المعروف[1] بعيداً عن هذا الحي . يأتي بعد ذلك من يقول :

إن الإسلام يبيح الفاحشة وشرب الخمر ... ؟

إني لا ألومكم كثيراً حين تسيئون بالإسلام الظن .. ولكن ألوم هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام حين يلطخون وجهه الوضيء بتلك المباذل

(١) كنجر كروس ـ سيدني .

التي تجعل المسلم ـ قبل غير المسلم ـ ساخطاً على هؤلاء القوم ...

إن السؤال الثاني من أسئلة «كاترين» يثير في النفس لوعة مريرة .

ويتحول في حلقي إلى غصة قاتلة .. !

ولماذا ؟

لأن صديقاً أمريكياً مسلماًسافر إلى بلد مسلم ضمن مجموعة من الخبراء للإشراف على مشروع كبير في هذا البلد المسلم ...

كان مرتب الخبير من هذه المجموعة حوالي ٥٠٠٠ خمسة آلاف دولار في الشهر حسب الاتفاق الذي تم بين هذا البلد المسلم وبين حكومة الولايات المتحدة ...

وقد نص في عقد الاتفاق المعقود بين البلدين أن يكون مرتب رئيس هؤلاء الخبراء ٧٠٠٠ سبعة آلاف دولار في الشهر .

لأنه : أولاً : الرئيس ، ولأنه ثانياً : استحق هذه الرياسة بكفاءته التي رشحته ليكون على رأس هذه المجموعة ...

أتدرون ماذا حدث لهذا الرئيس ؟

لقد أصر المسؤولون في الدولة المسلمة على خفض راتبه إلى النصف .. فقد اكتشفوا انه مسلم ومن أصل مصري ... وما دام مسلماً ومن أصل مصري فلا ينبغي أن يحصل على هذا الراتب أصلاً ... ؟ !

وكان موقفًا كريمًا من زملائه الأمريكيين حين رفضوا هذه التفرقة وهذه المساومة الرخيصة ، ثم حملوا أمتعتهم راجعين إلى الولايات المتحدة ...

وفي بلد آخر ... زادت الحكومة رواتب كل العاملين بها إلى النصف تقريباً ما عدا الغرباء الوافدين إلى هذا البلد من ذوي الكفاءات

الرفيعة التي لا تتوفر قطعاً عند أحد من أبناء هذا البلد ..

وكانت المصيبة أن واحداً من هؤلاء الغرباء أرسل خطاباً يستفتي فيه رجلاً ــ يقال ــ إنه عالم ديني ــ عن موقف الإسلام ــ من هذه التفرقة .

لقد بلغت المأساة قمتها حين ظهر هذا « الدعي » على شاشة التليفزيون ليرد على صاحب السؤال الموجه إليه حول هذه المشكلة . أتدرون ماذا قال في إجابته عن السؤال الذي وجه إليه ... ؟

ــ هل يستوي المسود والسيد ؟

بهذه العنجهية أجاب « يهوذا » المفتري على الإسلام مدافعاً عن الظلم والتفرقة العنصرية .. !

* * *

فهل هذا هو الإسلام ... ؟

هل يوافق الإسلام على هذه التفرقة في الرزق . والتفرقة في الجنس والعرق ... ؟

إنني أوجه سؤالي هذا إلى الآنسة «كاترين » وإلى السيدين بيتر وماكدونالد : فلنبدأ أولاً بالكلام عن ماهية هذه التفرقة . وعن التعريف الذي يقال ــ إنه علمي ــ عند فلاسفة هذه التفرقة . وبخاصة في « جنوب أفريقيا » والولايات المتحدة »[1] ..

يقولون : إن هناك خصائص « فيزيائية » لكل عنصر من العناصر . ومن أبرز هذه العناصر : لون البشرة . ولون العين ، وشكل الجمجمة ، وطول القامة وشكل الأنف .

---

(١) التفرقة العنصرية ــ دكتور عبد العزيز كامل .

وهناك من يحاول تعريف هذه التفرقة على أساس من نقاء الدم وهو تعريف ساقط وإن كانوا في أمريكا . وفي جنوب أفريقيا يرفضون حتى هذا اليوم نقل دم زنجي إلى دم رجل أبيض لأن دم الزنوج – في تصورهم – يحمل عدوى الانيميا التي لم يوجد لها علاج حتى هذا اليوم . !

والشيء المحزن .. أنه لا يزال في هذا العصر من يطلق عليهم لقب فلاسفة ومن هؤلاء رجل اسمه «لونج». هذا الفيلسوف العنصرى يقول في كتاب اسمه « تاريخ جامايكا » – إحدى دويلات البحر الكاريبي – يقول هذا العنصري المتفلسف عن الزنوج :

إنهم غير خليقين بالحياة .. وانهم لا يزيدون عن القرود التي تتعلم لتأكل وتشرب . وان قيمتهم لا تزيد عن قيمة اية سلعة تباع في الأسواق .. !

* وهناك قضية مشهورة عرفت بقضية السفينة «زرنج». هذه السفينة شحنت بمجموعة من المخطوفين من شواطئ أفريقيا .. – كما رأينا ذلك فى قصة «الجذور». لقد حدث أن كابتن هذه السفينة وهو في طريق عودته إلى أميركا أن ألقى في البحر بمائة وثلاثين زنجياً بحجة نقص الماء في السفينة وحين رفعت هذه القضية إلى المحكمة .. وأرجو ألا يخطر ببالكم أن رفع الأمر إلى المحكمة كان بسبب إلقائهم في البحر .. ولكن بسبب آخر في منتهى القسوة والهمجية .

لقد كان تجار الرقيق ينتظرون وصول هذه الشحنة التي دفعوا ثمنها مقدماً فكيف نقصت هذه الشحنة .. ونقص العدد ١٣٠ عبدًا .. ؟

إن السبب تجاري بحت لا صلة له بالشرف ولا بكرامة الإنسان ..

ولا بحقوق هذا الإنسان الأسود الذى لا يعترف به كإنسان .. ؟

ولهذا حكمت المحكمة ببراءة الكابتن المتوحش من تعمد إتلاف البضاعة .. بل كان عمله هذا ضرورياً للحفاظ على بقية الصفقة ... ! !

إن رجلاً اسمه « منتسكيو » يقول عن السود :

« إني أعتقد أن الله أحكم من أن يضع روحاً ... فضلاً عن روح طيبة في جسم حالك السواد ... !

إنها الفلسفة اليونانية والرومانية واليهودية التي لا تزال تحكم أوروبا .. ولا يزال العالم في نظرها ينقسم إلى شعوب مختارة ... وإلى برابرة ..

* * *

منذ أسابيع قليلة قتل في لندن بعض المسلمين من الهند وباكستان على يد منظمة تطالب بإخراج كل ملون من بريطانيا ...

وقبل ذلك.. قتل ثلاثون زنجيًا فى لندن لنفس السبب. وكما تقول تقارير البوليس : فإن جريمة تحدث كل ساعة ضد العرب والزنوج والمسلمين الموجودين في لندن ...

إنه لا تزال هناك لافتات في دول الحضارة الغربية تقول : (للبيض فقط ..) أو تلك اللافتات التى تقول «ممنوع دخول السود والكلاب..».

إن القانون هناك أبيض .. ولا علاقة له بأى لون آخر. لقد طرد وزير خارجية دولة افريقية من أحد مطاعم «نيويورك» لأنه تجرأ ودخل مطعمًا مخصصًا للبيض . !

لقد ضبطت فتاة أمريكية بيضاء تمشي مع فتى أسود .. إن الفتاة هي التي طلبت وأصرت أن تمشي معه .. فإذا بمجموعة من الشباب

. يلقون الفتى الأسود على الأرض .. ويركلونه بأحذيتهم حتى الموت .. !

والأعجب والأغرب أن رجال البوليس كانوا واقفين بالقرب من الحادث .. ولكنهم اكتفوا بالانصراف بعيداً حتى لا يستعين بهم الشاب الأسود .

ولماذا أذهب بعيداً .. ؟ هل تذكرون ما وقع هنا مع « الأبوريجنال » .. السكان الأصليين لاستراليا ؟ ألم يفعل أجدادكم معهم مثل ما فعله المستوطنون مع الهنود الحمر في أميركا .. ؟ !

* * *

لقد قام في بريطانيا منذ سنوات حزب يدعى « الجبهة الوطنية » National Front هذا الحزب يطالب بطرد كل الملونين والسود من المملكة المتحدة ويرى فى بقائهم خطرًا على الشعب البريطانى والأمة البريطانية . وحتى لا نتجنى على أحد فإننا ننقل نص الحوار الذى دار بين رئيس هذا الحزب ويدعى « مارتن وبستر » وبين أحدى المجلات التى تصدر فى لندن[1] :

س : ماذا تقول للذين يتهمونكم بأنكم عنصريون ؟ .

ـ مارتن وبستر : نعم .. إننا عنصريون .. ونحن منظمة عنصرية : أقولها بصراحة . نعم .. أنا عنصري .. !

س: هل يمكن أن توضح ما تقول . فالناس يعرفون أن حكومة جنوب أفريقيا حكومة عنصرية ، ويبدو أن مفهومكم للعنصرية كحزب بريطاني معترف به ، يتشابه مع مفهوم إخوانكم البيض في جنوب أفريقيا .. وان كان مفهوماً أوروبياً بريطانياً ؟

---

(١) مجلة الحوادث ..

ـ مارتن وبستر : لنقل إن العنصري يؤمن بأن الشعوب المختلفة التي توجد في العالم أي الشعب الأسود ، والأصفر والأبيض ، تختلف عن بعضها وراثياً . فالشخص الأسود الذي يتزوج من سوداء لا ينتج أطفالاً ذوي بشرة بيضاء . ولهذه الشعوب المختلفة تقاليدها وثقافتها .

ونحن نعتقد أن الشعب البريطاني شعب متميز عن بقية الشعوب . فله ثقافته المتميزة وسيكولوجيته وتقاليده . ونحن نريد أن نحفظ للأمة البريطانية هذه « الخاصية » . فالأمة ليست الأرض والبيوت ، وانما هي « الشعب » وعندما نتحدث عن الشعب البريطاني فإننا لا نتحدث عن الوثائق التي تمنحها الدولة للأشخاص ، وإنما عن الدم وخصائص الوراثة في هذا الدم .... والبريطانيون هم الانكليز والاسكتلنديون والولش ، وهم شعب واحد . لأنهم أوربيون ، ولأنهم من جنس واحد ، فهم شعب واحد .

س : إنك تعني البيض أليس كذلك ؟

ـ مارتن وبستر : ببساطة . بلى . نحن شعب أبيض شمالي . ولكن الحكومة البريطانية أعطت وثائق لأشخاص من مختلف الجنسيات ، أصبحوا بموجبها بريطانيين ، أي يحملون الجنسية البريطانية ولنفرض أنك تربي قطة ، وأنها ولدت « قطيطات » صغيرة ، فستبقى هذه قططا إلى الأبد . ويمكن أن تغير جنسية شخص باعطائه (قطعة ورق) ولكن هذا لا يغير عرقه . فالعرق يعني الاباء والأجداد وكل ما له علاقة بذلك . !

س : إذن ما هو الفرق بينكم وبين النازية ؟

ـ مارتن وبستر : إني لا أعرف . عليك أنت أن تبين لي الفرق . !

وتوقف قليلاً ثم استدرك قائلاً :

أعتقد أن الفرق بيننا وبينهم أنهم لم يؤمنوا بالعنصرية كما نؤمن نحن . فهم يؤمنون بالسيطرة ، إنهم عنصريون ولكنهم مستعمرون ، وإنهم عنصر متفوق . وأن لهم الحق في إخضاع الشعوب الأخرى . وأما نحن فنريد المحافظة على عنصرنا .

س : إنه اختلاف في الدرجة إذن اقتضته الظروف ومرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية . هو اختلاف تكتيكي إذا صح التعبير . ؟

ـ مارتن وبستر : لا أعتقد ذلك . يبدو أنك أنت الذي تضع هذه المعادلات على هواك .

س : إذا كانت هذه مجرد معادلات مغرضة كما تقول ، فما الذي ستفعلونه بالسود والهنود والباكستانيين . وهم شغلكم الشاغل في إطار تحديدكم لمعنى «المواطنية» والعنصرية ونقاء الدم والشعارات التي ترفعها النازية في كل مكان ؟

ـ مارتن وبستر : حسناً . إن لهم بلادهم وقد استقلت الآن بعد أن كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . لقد استعادوا حريتهم منا ، ليأخذوا حريتهم وليذهبوا من هنا . !

س ـ أهذا ما تسمونه « إعادة الاستيطان » ؟

ـ مارتن وبستر : نعم . لقد جاء السود بحثاً عن فرص عمل . حسناً . وقد آن لهم أن يذهبوا . لقد جاء هؤلاء طوعاً واختياراً إلى بلادنا ، فنحن لسنا كالأميركان حيث استقدم السود كعبيد للعمل في المزارع هناك . وأقول لك إن تسعة وتسعين في المائة من السود الذين يقيمون في هذه البلاد اليوم قد جاءوا بعد صدور قانون الجنسية سنة

١٩٤٨ . عندما بدأت الامبراطورية بالانهيار التام ... نعم إن غزو السود لهذه البلاد قد جاء بعد صدور قانون الجنسية ويعود ذلك إلى توقف أميركا عن شراء السكر من مصانعنا في جاميكا . فهاجر هؤلاء إلى بريطانيا . وعلى هذا الأساس يجب أن يعاد هؤلاء إلى بلادهم فوراً ... !

* * *

أما الإسلام فإنه ينظر إلى الإنسانية كحديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على لون .. أو لصورة على صورة[1] .

استمع إلى هذا الحديث الذي يقول فيه النبي :

أنا سابق العرب ..

وصهيب سابق الروم ...

وسلمان سابق الفرس ..

وبلال سابق الحبش ..

ـ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم :

لينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن عند الله أهون على الله تعالى من الجعلان ـ أي ـ الدويبة السوداء التي تكون في الأماكن الرطبة .

ـ بل نقرأ :

إن أبا سفيان مر على سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله ..

وسمع ذلك أبو بكر فقال :

أتقولون هذا لشيخ قريش ؟

---

(١) دكتور عبد العزيز كامل ـ الإسلام والتفرقة العنصرية .

وذهب أبو بكر وأخبر النبي (ص) بما سمع وبما قال .

فقال النبي لأبي بكر :

يا أبا بكر لعلك اغضبتهم ؟ إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .. فأتاهم أبو بكر وقال :

ـ يا إخوتاه أأغضبتكم ؟

ـ ما غضبنا يغفر الله لك ..

ـ وكان عمر يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يقصد « بلالا » العبد السابق ...

ـ وقد تزوج بلال العبد السابق أخت عبد الرحمن بن عوف « القرشي التاجر الكبير ...

ـ وأعتق الإمام الحسين جارية ثم تزوجها فكتب إليه معاوية يقول : كيف تتزوج جارية .. ؟

فقال له الإمام الحسين : لقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة ..

وقد .. آخى النبي بين بلال الأسود وبين خالد بن رويحة .

ـ وآخى بين زيد العبد السابق وبين عمه حمزة ...

ـ وآخى بين أبي بكر وبين خارجة بن زيد ..

ـ لقد زوج النبي مولاه زيد من ابنة عمته زينب القرشية .

ـ وعقد لواء الجيش لأسامة بن زيد وفيه كبار الصحابة .

وعندما جاء المسلمون لفتح مصر وقفوا أمام حصن بابليون فأرسل المقوقس يطلب مفاوضاً من المسلمين .

فأرسل عمرو بن العاص جماعة على رأسهم عبادة بن الصامت ـ

وكان عبادة أسود شديد السواد طويلاً حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار .

فلما دخلوا على المقوقس . هابه لشدة سواده .. وقال :

نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ....!

فقالوا له : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا ...

فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وكان يجب أن يكون أقلكم ..

فقالوا له : إنه وإن كان أسود كما ترى فهو أحسننا رأياً وعقلاً وسابقة في الايمان.

فقال له المقوقس : تقدم يا أسود وكلمني برفق فاني أهاب سوادك .. !

فقال عبادة وقد أدرك فزع المقوقس وخوفه من لونه :

إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني ... !

* * *

لقد اقتص الإسلام من « ملك » ... لأنه ضرب أحد السوقة ...

وحين طلب أمير المؤمنين عمر هذا الملك يسأله إن كان ضرب هذا الرجل . اعترف بأنه فعل ذلك وقال :

إنه تعمد حل إزاري .. ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ..

فقال له عمر : لقد أقررت فإما أن ترضي الرجل . وإما أن أقيده منك ..

فقال الملك وكان اسمه « جبلة » ..

ـ ماذا تصنع بي ؟

فقال عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت .. !

فقال الملك : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ... ؟

فقال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ....

* * *

وفي موقف آخر ...

أمر أمير المؤمنين عمر بجلد أحد القواد التاريخيين في الإسلام – وهو أبو موسى الأشعرى[1] .

فقد كان مع هذا القائد جندي عرف بالشجاعة في قتال العدو فأعطاه أبو موسى القائد بعض حقه من الغنائم . فرفض الجندي إلا أن يأخذ حقه كاملاً ...

فغضب منه هذا القائد وأمر بجلده عشرين سوطاً ...

ثم حلق شعره ...

فجمع الرجل « شعره » ثم ترحل إلى عمر حتى قدم عليه ثم دخل عليه فأدخل يده واستخرج شعره . ثم ضرب به صدر « عمر » وقال :

– أما والله لولا ....

فقال عمر : صدق ... لولا النار ... !

ثم ذكر الرجل قصته مع أبي موسى وكيف حلق شعره بعد أن ضربه عشرين سوطاً لأنه رفض التنازل عن حقه .

فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إليَّ من جميع ما أفاء الله عليّ ...

(١) القضايا الكبرى في الإسلام . للشيخ عبد المتعال الصعيدي .

ثم كتب « عمر » إلى أبي موسى قائلاً :

سلام عليكم ... أما بعد :

فإن فلانا أخبرني بما كان منك . فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس . فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس حتى يقتص منك ... !

وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس . فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك ..

ثم قدم الرجل على « أبي موسى » فقال له الناس :

أعف عنه .

فقال الرجل : لا والله لا أدعه لأحد من الناس ...

فلما قعد أبو موسى ليقتص منه هذا الرجل رفع رأسه إلى السماء ثم قال :

اللهم قد عفوت عنه ... ! !

قد يبدو هذا الأمر « مقبولاً » إلى حد ما في عصرنا الحاضر وفي بلاد لا يفرق فيها القانون بين صغير وكبير أمام هيئة المحلفين في محكمة ...

أما حين يقع ذلك منذ أربعة عشر قرناً حين كان الملوك والأمراء يعتبرون الأرض بمن عليها من البشر ملكاً خاصاً يتصرفون فيه كما يشاؤون فهنا وجه الاعجاز والعدالة في شريعة الإسلام وقانون الاسلام .

وحتى في بلد عريق في الديمقراطية كبريطانيا .. هل كان يقبل الناس ان يقف المرشال « مونتجومري » أمام محكمة يواجه فيها الحكم باعتدائه على أكبر ضابط أو أصغر جندي ... ؟ !

إن فضيحة «ووترجيت» لم تنل من الرئيس الأميركي السابق «نكسون» لأن خلفه، الرئيس السابق «فورد» أصدر عفوًا شاملاً عنه بعد اكتشاف هذه الفضيحة .

ولكن محمداً رسول الإسلام يقف ذات يوم قائلاً لأصحابه :

من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ..

ويقول أيضاً :

« إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي :

الا إني جعلت نسبا . وجعلتم نسبا ..

فجعلت أكرمكم أتقاكم . فأبيتم إلا أن تقولوا :

فلان ابن فلان . خير من فلان ابن فلان ... فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم »[1] ..

* * *

وأعود مرة ثانية إلى سؤال الآنسة «كاترين» عن القرآن وهل قسم الناس إلى طبقات تتفاوت فيما بينها وتختلف باختلاف الجنس والعرق والمعيشة والرزق ... ؟

وأعتقد أنها تشير بسؤالها هذا إلى الآية الثانية والثلاثين من سورة « الزخرف » ..

« ... نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا .. »

---

(١) الترغيب والترهيب ـ جـ ٣ .

لقد فهم معنى هذه الآية على غير حقيقته وفسر تفسيراً بعيداً عن معناه الذي قصد به .

انظروا إلى الناس الجالسين هنا ..

سلوا كل واحد عن عمله وثقافته وعن أجره الذي يتقاضاه أو راتبه ..

هل يأخذ العامل أجر المهندس ؟

وهل يحصل الطبيب على ما يحصل عليه الممرض ... ؟

وهل يحصل « السرجنت Sergent » أو « الرقيب » في الجيش على ما يحصل عليه الجنرال General أو القائد ... ؟

إن هذا التفاوت بين المهندس والعامل ، أو بين الجندي والقائد أو بين الطبيب والممرض ليس تفاوتاً في الكرامة الإنسانية ، ولا في الحقوق أو العدالة ..

إنما هو تفاوت يختلف باختلاف المواهب ، وباختلاف طبيعة العمل بين الجندي والقائد ، وبين المهندس والعامل ، وبين الطبيب والممرض ... وطبيعة الحياة البشرية قائمة على أساس هذا التفاوت في مواهب الأفراد ، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت في مدى اتقان هذا العمل ..

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة لخلافة الإنسان عن الله في هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخاً مكررة ما أمكن أن تقوم للحياة في هذه الأرض قائمة .. ولتعطلت أعمال كثيرة لا تجد من يقوم بها[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ـ الأستاذ سيد قطب .

« ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فدولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً .

وليس معنى التسخير هنا الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة أو استعلاء فرد على فرد .. كلا ...

مثلاً العامل مسخر للمهندس في المصنع . ومسخر لصاحب هذا المصنع ، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب المصنع ، وصاحب العمل أو المصنع مسخر للعامل والمهندس . والجميع مسخر لخدمة الناس والمجتمع ..

* * *

هل يخالجك يا آنسة «كاترين » بعد ذلك شك ... ؟

وهل رضي السيدان بيتر وماكدونالد عن هذا الايضاح والشرح ؟ .

أما بعد :

فمنذ ثلاثة عشر قرناً شكت جارية سوداء اسمها « فرتونة » إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين تقول له :

لقد تهدم جدار بيتي .. وأخشى على « دجاجي » من اللصوص ، أن يسرقوه ...[1] .

فكتب الخليفة إلى واليه علي مصر أيوب بن شرحبيل يقول له :

إن « فرتونة » مولاةذي أصبح قد كتبت إليّ تذكر قصر حائطها .. وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها :

---

(١) من روائع حضارتنا ـ للمرحوم الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ..

فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها ...

فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن « فرتونة » حتى عثر على محلها .. فإذا هي سوداء مسكينة ..

فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها .. !

* * *

هذا ما فعله المسلمون قبل ثلاثة عشر قرناً ..

وهذا مثل من حضارتنا ..

* * *

لقد سافرت إلى أفريقيا عام ١٩٦٢ وفي «تنجانيقا» أو ما تعرف اليوم باسم « تنزانيا » سمعت هذه القصة في مدينة « تابورا » :

كانت هناك كنيسة يشرف عليها أحد القساوسة .. وكان لهذا القيس ولد لا تزيد سنه عن الثانية عشرة .

وذات يوم قال الولد لأبيه القس :

ـ أبي هل هناك إله أبيض للبيض وإله أسود للسود ؟

لقد فوجئ القس بهذا السؤال الغريب من ولده فسأله :

ـ ماذا تقول . ولم هذا السؤال ... ؟

فأجاب الولد أباه القس :

ـ لقد لاحظت ان البيض يدخلون الكنيسة حين يخرج الملونون السود .. بينا لا يدخل الكنيسة أحد من السود والملونين حتى يخرج البيض ... !

ثم جذب الولد أباه من ثيابه وطلب منه أن يتبعه .

وسار الوالد القس وراء ولده مذهولاً من المفاجأة .. وهناك ...
وعلى بعد مئات الأمتار توقف الولد أمام بوابة مسجد «كان يوم جمعة والمسجد ممتلئ بالمصلين عن آخره ... بيض . وسود . وملونون من العرب والهنود .. الكل يتحرك حركة واحدة إلى الله الواحد المعبود ...

وهنا التفت الولد إلى أبيه قائلاً :

هنا إله واحد للأبيض والأسود وأنا أريد أن أعبد هذا الإله الذي لا يفرق بين أحد .. وأحد .. ! ! !.

ثم انفلت من يد أبيه ودخل المسجد ...

وهذا هو الإسلام ...

وتلك هي شريعة .. الإسلام ...

* * *

المحتويات

* الفلاسفة ذوو القلوب السوداء .... !
* نماذج شاذة من المسلمين ..... !
* حزب بريطانى جديد ضد السود والملونين ...
* عندما يتكلم النبى محمد ...
* مع الإسلام فى مجال التطبيق ...
* ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ... ، .. كيف ؟
* «فرتونه» السوداء والخليفة عمر بن عبد العزيز ..
* إله واحد .. لكل البشر ...

رقم الايداع : ٥١١٠ / ٨٧

الترقيم الدولى : ٢ ـ ١٠٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE